
www.riwaya.ga
9
فانتازيا
جاءوا من الوادي
د. أحمد خالد توفيق

.. ومقدمة الكتيب الخاص

هذا هو العدد الخاص الثانى الذى تقوم ببطولته عبير .. نحن نعرف أن فانتازيا ليست قصصًا بالضبط ، ولا تنطبق عليها قواعد الرواية .. هى خليط مجنون عجيب من الأدب والمقال النقدى الطويل .. هكذا تصمم عبير على أن يكون عددها الخاص تلفيقيًا بشكل ما .

فى العدد السابق (خمّنوا معى) ، جربنا أن تضل عبير طريقها فى عوالم الأدب ، وفى كل مرة تجهل عنوان القصة التى تعيشها .. وتحاول الاستنتاج .. ترتب حروف عنوان بريد إلكترونى ، وهذه هى الطريقة التى يبرهن بها القارئ على أنه عرف الحل .. وفيما بعد قمت بترتيب الخطابات التى وصلتنى على هذا العنوان البريدى حسب الوصول .. وقد قدمت المؤسسة هدية رمزية لأول عشرة فائزين .. كما قلت هى هدية أثمن من كلمة (شكرًا) وأقل بكثير من فيلا فى الساحل الشمالى .

أحبّ بعض الأصدقاء هذا الكتيب العجيب ، وبعضهم لم يحبه قط حيث لم يرق له أسلوب المسابقات هذا .. هؤلاء هم نفس الأصدقاء الذين لم يحبوا (خمّنوا معى) أو (كهوف دراجوسان) أو (العالم المهد) أو (RCP) .. لكل واحد قدح الشاى الخاص به كما يقول الإنجليز

كما قلت : اعتبروا أننا نلهو هنا ، والويل للمؤلف لو زعم أن هذه رواية أو مجموعة قصص قصيرة . هذه لعبة ذات طابع ثقافى ... لا أكثر .

لا أعرف بصراحة طريقة أخرى لمكافأة من يجتازون هذه المتاهة ، سوى أن يستنتجوا عنوانًا بريديًا يراسلونه ، وبالتالى أقوم بترتيب الفائزين . بالطبع ستكون هناك قائمة للمصريين الذين سيقرءون الكتيب قبل سواهم ، وقائمة لغير المصريين الذين سيصلهم الكتيب متأخرًا طبعًا . هذا يوجد نوعًا من العدل . وعلى الأرجح سوف توافق المؤسسة على عدم إحراجي، وتقدم هدية للفائزين العشرة الأوائل .

اليوم سوف تضل عبير طريقها وسط عوالم الشعراء . عليها فى كل مرة أن تخمن اسم الشاعر الذى تخوض معه هذه المغامرة . وعن طريق اسم الشاعر تقترب من الحل شيئًا فشيئًا . هناك اختراع خطير أفسد كل شيء مؤخرًا ، اسمه (جوجل) . وعن طريق الأخ جوجل يمكن للقارئ أن يستخدم مقطعًا من الشعر ليصل لاسم الشاعر دون جهد تقريبًا . لهذا اعتمدت كثيرًا على ترجمتى الخاصة أو صياغتى لأبيات الشعراء الغربيين، وحاولت أن أغير بعض الكلمات فى شعر الشعراء العرب . كما أن هناك الكثير من حيل التضليل الأخرى

فى أحيان كثيرة لن أوضح البلد الذى تدور فيه القصة ، لأنك لو تكلمت عن الهند مثلاً فتحديد الشاعر سهل جداً . مجرد أن تعرف أن القصة تدور فى أيسلندا سيجعل الجميع يستنتجون أننا نتكلم عن الشاعر يوناس هالجريمسون أو ستورى سترلسون !!.. (أنا أمزح على فكرة !)

إن التضليل هو اسم لعبتنا اليوم !

والآن قد تكلمنا كثيرًا ولم نفعل . حان وقت البدء .. أسهل طريقة لفهم اللعبة هي أن تبدأها فعلاً . تعالوا نذهب مع عبير إلى الوادي حيث تضل طريقها عاجزة عن العثور على مخرج .

أسماء الشعراء ..

1 ـ الحارث اليشكري
2 ـ غارثيا لوركا
3 ـ بودلير
4 ـ لورد بيرون
5 ـ الأقيشر
6 ـ عنترة بن شداد
7 ـ ملتون
8 ـ بدر شاكر السياب
9 ـ وردزورث
10 ـ إليوت
11 ـ إدجار آلان بو
12 ـ طاغور
13 ـ الأخطل
14 ـ دانتي أليجيري
15 ـ حماد عجرد
16 ـ بوشكين
17 ـ جرير
18 ـ عبيد بن الأبرص
19 ـ الأعشى ميمون
20 ـ أبو فراس الحمداني
21 ـ سولي برودوم
22 ـ بول فاليري
23 ـ شكسبير
24 ـ سيرجي يسينين
25 ـ النابغة الذبياني
26 ـ محمود سامي البارودي
27 ـ الكميت بن زيد الأسدي
28 ـ امرؤ القيس
29 ـ أبو نواس
30 ـ يفتوشينكو
31 ـ نزار قباني
32 ـ أحمد شوقي
33 ـ نازك الملائكة
34 ـ المتنبي
35 ـ كوليت خوري
36 ـ عبد الحميد الديب
37 ـ مظفر النواب
38 ـ شيلي
39 ـ صلاح جاهين
40 ـ فؤاد قاعود
41 ـ الفرزدق
42 ـ [illegible]
43 ـ علي الجارم
44 ـ أبو العلاء المعري
45 ـ الأبيوردي
46 ـ هوميروس
47 ـ أحمد رامي
48 ـ أبو العتاهية
49 ـ أبو العيناء
50 ـ غادة السمان
51 ـ بشار بن برد
52 ـ والبة بن الحباب
53 ـ حسان بن ثابت
54 ـ [illegible]
55 ـ طرفة بن العبد
56 ـ آنا أخماتوفا
57 ـ بابلو نيرودا
58 ـ أبو القاسم الشابي
59 ـ فروست
60 ـ ناظم حكمت
61 ـ أبو تمام
62 ـ فدوى طوقان
63 ـ البحتري
64 ـ إبراهيم ناجي
65 ـ معروف الرصافي
66 ـ أمل دنقل
67 ـ محمود درويش
68 ـ سميح القاسم
69 ـ صلاح عبد الصبور
70 ـ ماياكوفسكي
71 ـ زرقاء اليمامة

١٠

فى الوادى

لسبب ما بدأت عبير تعشق الشعر مؤخرًا .

لم تكن تهواه كثيرًا . وكانت تجد فيه نغمة افتعال معينة ، كأن الشاعر يعاني عيبًا معينًا في النطق يمنعه من الكلام مثلنا . ماذا يريدون قوله ؟ لم لا يقولونه باختصار ومباشرة ؟ ولماذا يضيع الشعر وقته قائلًا : « شعث مفارقنا تغلي مراجلنا . نأسو بأموالنا آثار أيدينا » إذا كان بوسعه أن يقول : «نحن أثرياء كرماء شديدو البطش » ؟

تقرأ مونولوج هاملت الشعرى الطويل فتتساءل : « ماذا لو قال أنا أريد الانتحار لكنى خائف » وينتهى الأمر ؟

لكن في الفترة الأخيرة حصلت عبير على بعض دواوين الشعر ، ثم اعتادت أن تذهب لذلك الكشك في سور الأزبكية لتتصفح الدواوين القديمة البالية المغبرة ، التى ملأ الملاك السابقون هوامشها بالخطوط والقلوب .

كانت تشعر بأنها تتفقد بعض أطباق بترى الصالحة لزرع البكتريا .. هنا كان الوسط الملائم لمئات من قصص الحب عبر التاريخ. أكثر من فتاة قرأت هذه الأبيات وحلمت ، وأكثر من شاب قرأها وبكى ..

ليس هذا فحسب .. هنا ترعرعت ثورات وألقى أكثر من فيلسوف أسئلة ميتافيزيقية لا تنتهى . هنا أعلن أكثر من واحد يأسه وأن قوس صبره لم يعد فيه منزع . وهنا أعلن البعض التحدى .

تراكمت الدواوين جوار فراشها .. بعضها كان رديئًا غير قابل للقراءة أصلًا، وبعضها كان شعرًا شامخًا تشعر أنه سلاسل ذهب

لم تكن تقرأ لغة أجنبية في عالم الواقع، لكنها وجدت دواوين كثيرة مترجمة للعربية. وقد أعجبت جدًا بالمعاني، حيث لا تلعب الموسيقى أو إيقاع الكلمات أي دور. هذه نقطة مهمة شرحها أحد النقاد يومًا: الشعر الذي يقبل الترجمة ويحتفظ بجودته هو شعر ممتاز. عندما نغرق في مصيدة الإيقاع وجرس الكلمات. لن يبقى سوى المعنى: «شعث مفارقًا تغلي مراجلنا. نأسو بأموالنا آثار أيدينا» كلمات قوية ذات إيقاع موسيقي ساحر، لكنك لو ترجمتها للإيطالية مثلًا لوجدتها كلامًا فارغًا على غرار: «نحن أثرياء كرماء شديدو البطش».

هكذا قرأت لكثيرين. كانت تعرف جيدًا أن الشعر سوف يقتحم عالم فانتازيا لا محالة. لا يمكن للشعر أن يتحول لهاجس من دون أن يقتحم أحلامها.

لكن كيف تتحقق مغامرة في عالم الشعر؟

كانت قد جربت ذات مرة الحياة مع شاعر مهم هو عمر الخيام. كما أنها شاركت في عالم الشاهنامة مع الفردوسي.. وعاشت قصة طويلة مع المتنبي، بل إنها كانت مع الخليل بن أحمد وسيبويه شخصيًا، ونحن نعرف أن الخليل لم يكتب شعرًا، لكنه عالم في الشعر. كما يجب أن نضم الإلياذة والأوديسا كذلك... هل من قصص أخرى؟ بصراحة عبير لا تذكر وأنا لا أذكر. إدجار آلان بو؟ لا.. من صاحب المغامرة هو الشيخ رفعت إسماعيل

من الغريب أن الأبيات راحت تتردد فى ذهنها طيلة اليوم ، وهى تعمل .. وهى تطهو .. وهى ترتب الفراش .. وهى تحمم طفلتها ..

فى النهاية جاء اليوم الذى عم البيت فيه الهدوء ، فجلست إلى اللاب توب .. ثبتت الأقطاب على رأسها وحبست نفسها ، ثم ضغطت على أيقونة مولد الأحلام بمؤشرة الفأرة ..

هل بدأت الرحلة ؟

نعم بدأت .. كانت ناعمة سريعة ، ولكنها فعالة .

* * *

هناك تمتد الصحراء إلى ما لا نهاية فى ضوء الغروب .

من موضع لآخر ترى سحلية تتسلل هنا أو هناك .. لابد أن أكثر من أفعى حرشفية تغادر مكمنها وقد برد الجو . العقارب تبدأ البحث عن الرزق ..

ثم من مكان ما يدوى صوت أبناء الليل - على طريقة الخواجة دراكولا - ما أجمل غناءهم . الذئاب تخرج لتطلق صوتها الطويل المليء بالوحشة والصدى .. كان الذئاب تعرف تأثيرها الدرامى وتؤديه ببراعة .

فى الأفق تلتمع الشعرى اليمانية للمرة الأولى هذه الليلة .

شعرت عبير بقشعريرة .. لا ينكرن أحد أن الصحراء باردة ، فإذا أضفنا لهذا تأثير الليل المخيف فإنك ترتجف من الداخل فعلاً .

كان قادمًا من بعيد ..

لم تستطع فهم كنهه .. لكنها أدركت أنه فارع الطول ، وأنه يمشي منحنيًا للأمام .. يترنح قليلًا .. ثم يرفع ذراعيه لأعلى .. هنا أصابها الهلع .. لابد أن ذراعي هذا القادم أطول من رجليه .. يذكرك ذلك بطول ذراعي إنسان الغابة ..

ثم أدركت أن وجهه تجويف عملاق .. لا يوجد وجه .. الأمر أشبه بملعقة كبيرة في حجم وجهك .. لكنك تدرك بسهولة أن هناك شيئين ناريين يتوهجان وسط التجويف .. لابد أنهما عينان ..

كان يضحك .. يضحك تلك الضحكة الشيطانية المدوية التي توحي بأنها من خارج العالم .

تراجعت للخلف وقلبها يتواثب رعبًا ..

من هذا ؟ أين هي ؟ عليك اللعنة أيها المرشد .. هل هي مغامرة على كوكب غريب يفتك سكانه بالأرضيين ؟

كان يترنح ويضحك .. ثم رفع عقيرته لأعلى وصاح :

مهلًا يا قضاعة لا تكوني ★ كقدح خر بين يدي مجيل

فإنك والتحول عن معد ★ كحالية تزين بالعطول

تغايظ بالتعطل جارتيها ★ وبالحمساء تبدأ والعطل

ما هذا الكلام ؟ لم تفهم حرفًا تقريبًا .. هذا جو شيطاني غريب .. صاحت في رعب راجف :

- « من .. من أنت ؟ »

- « أنا مدرك بن واغم !! »

حتى الاسم غريب .. ثم فجأة سرت قشعريرة فى عروقها .. لقد بدأت تفهم .. إن هذا الذى يكلمها من الجان .. لا شك فى هذا .. ليته كان كائنًا فضائيًا ؛ الاسم والمنظر ..

ثم إنه راح يتواثب كالخيول من حولها ..

المشهد الذى أثار دهشتها أكثر أنها رأت شخصًا أقرب للبشر يقف على بعد خطوات ..

كان رجلاً يلبس جلبابًا ويعتمر عمامة وطيلسانًا ويحمل فى يده قرطاسًا .. يقف فى الظلام يتابع ما يدور باهتمام ، ثم هتف كأنه يستعيد الكلام :

- « كقدح خمر بين يدى مجيل ؟ أنت قلت ذلك ؟ »

هتف الكائن الشيطانى الذى يتواثب من حولها :

- « نعم .. نعم .. حاول أن تحفظ .. لن أعيد ما أقول ! »

هنا اتجهت عبير نحو الرجل الذى يبدو كرجل ، وسألته وهى ترتجف :

- « من أنت ؟ »

نظر لها فى دهشة وبعينين زائغتين .. أدركت أنه كالملوم مغناطيسيًا له عينان ذاهلتان مشعتان .. وقال :

- « أنا الكميت بن زيد الأسدي .. من شعراء العصر الأموي
تشرفت بلقائك »
- « وأنا عبير عبد الرحمن .. من بلهاء القرن الحادي والعشرين »
كانت تتذكر الاسم نوعًا ، لكنها لا تتذكر يقينًا أي شيء يتعلق به
هو اسم شهير وكفى .
قال لها وهو يمسك بريشة يقطر منها الحبر ويدون على
القرطاس :
- « أرجو أن تسمحي لي .. إنني مشغول جدًا »
كانت تتساءل عن المعجزة التي تجعله يرى ويقدر على الكتابة في
ليل الصحراء البهيم . لكنها على الأقل فهمت أنه لا يبالي بها . والأهم
أن ذلك الأخ مدرك بن غانم لا يبالي بها بدوره . هناك عملية إعداد
غريبة تدور هنا .. لا تعرف بالضبط الموضوع ولا السبب ، لكنها
متأهبة للابتعاد عن هذا المهرجان ..
مشت تجر قدميها وسط الرمال الباردة الناعمة ، وهي ترتجف ..
ترى من أين تأتي لدغة الثعبان القادمة ؟ متى تدوس عقربًا ليغرس
حمأته في لحمها ؟
والأهم : متى تغوص في بحر رمال متحركة فتزول من على الأرض
البسيطة ؟
هنا فوجئت برجل قصير القامة يجلس على الرمال وقد أشعل بعض

الأخشاب .. تشم رائحة شواء مغرية ، فتدنو فى حذر ... على ضوء اللهب ترى ملامحه المتصلبة ولحيته النامية والنظرة الذاهلة المعتادة .. من الواضح أنه عربى من عصر غابر .. ربما العصر الجاهلى أو صدر الإسلام أو العصر الأموى .. لا تعرف بالضبط .. ونظرت لملامحه السمراء ووجهه النحيل ، وأحست أن هذه ملامح يمنية .. لا شك فى هذا ..

عندما اقتربت وحيته لم ينظر لها .. كان يرمق النار شارد الذهن ويعابث اللهب بغصن شجرة لا تعرف من أين جاء به هنا ، حيث لا أشجار ..

قالت له فى حذر :

- « مساء الخير »

رد التحية بأسوأ منها :

- « عمت مساء »

- « هل تسمح لى بالجلوس ؟ »

رفع عينيه يرمقها ثم اتسعت عيناه محذرتين وقال :

- « ليكن .. لكن عليك أن تلزمى الصمت .. أنا أمقت النساء لأنهن كالطيور التى تنقر الأفكار نقرًا .. لا وقت لامتلاء بالونات الأفكار بفقاقيعها فورًا .. إنهن لا يصمتن لحظة »

معاصر جدًا ويعرف البالونات !

فجأة أدركت أنه ليس وحيدًا .. هناك في الظلام على بعد خطوات من النار يقف رجل آخر .. لا .. بل شيء آخر .. شيء فارع القامة يوشك على أن يقترب من السماء .. لا يمكن أن يكون هذا رأسًا آدميًا .. أعتقد أنه أقرب إلى رأس صقر عملاق .. هناك في موضع القلب شيء يتوهج كجمرة على طريقة قلب الخواجة إي تي ، وهو يحرك رأسه ذات اليمين واليسار بطريقة ميكانيكية مخيفة في حد ذاتها .

سمعت الشيء الشيطاني يردد :

« وليل كموج البحر أرخى سدوله ★ عليّ بأنـــواع الهمـــوم ليبتلي

فقلتُ له لما تمطّى بصلبه ★ وأردف أعجـــازًا ونـــاء بكلكلِ

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلي ★ بصُبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ

وقد أغتدي والطيرُ في وُكُناتها ★ بمنجـرِدٍ قيـد الأوابـد هيكـلِ

مكــرٍّ مفــرٍّ مُقبِلٍ مُدبرٍ معًا ★ كجُلمود صخرٍ حطّه السيلُ من علِ »

ثم صاح بصوت جعل الرمال نفسها تتذبذب من التصادم .. موجات تنتقل بسرعة تحت قدميك :

- « هل حفظت ؟ لا تنسَ فأنا لن أكرر »

ما هذا السخف ؟ .. هذه أبيات شهيرة جدًا .. كل طالب مدرسة في مصر يحفظها .. بالطبع حين كانت هناك مدارس في مصر .. ما هذا المكان بالضبط ؟

الرجل الجالس أمام النار يقلب الخشب المشتعل أكثر ، ويتفقد

تهتزان مع مقاطع الأبيات .. كأنه طالب مدرسة نجيب .. ثم إنه بصق في النار ونهض .

إلى أين ؟ رأته عبير يمشى بضع خطوات فى الصحراء المظلمة الباردة .. ينظر باتجاه نجوم وعاء الدب الأكبر .. يفرد ذراعيه كأنه سيطير . فتسأله وهى تجرى نحوه مذعورة .. لن يتركها مع هذا الشيء الذى له رأس صقر .. سألته وقلبها يتواثب :

ـ « إلى أين أنت ذاهب ؟ »

لم يرد .. وأدركت أنه يفتح ذراعيه أكثر ، ثم رأت فجوة تتكون فى العالم حولها .. كأن المشهد الذى تراه صار مثقوبا .. هذه أشياء تفعلها السينما بشكل أفضل ..

وبدأ الرجل صاحب الشواء يرتفع .. أدركت أن الفجوة تبتلعه كما تفعل الثقوب السود بالأجرام القريبة .. إنه يتوارى .. إنه يذوب فى الأبدية .. فجأة لم يعد له ماض ولا ظل .. لقد غاب فى بعد آخر ..

ومن خلفها سمعت صوت الكائن المخيف الذى له رأس صقر يدوى فى الصحراء:

ـ « وداعا يا امرؤ القيس !!! »

امرؤ القيس ؟؟؟

هذه الأبيات له فعلا .. كل الناس تحفظها .. الحصان الذى له أيطلا ظبى وساقا نعامة .. وتقريب تتفل .. كانت تلك أياما بخيرها .. وجد

الشاعر أنه مضطر لاستعمال كلمة بمعنى تعب وتتطق مثل (كالتر
لهذا اخترع هذه اللفظة (تقل) واعتبر أن معناها (تعب)

ولكن ما معنى هذا المشهد العجيب ؟

هنا سمعت صوتا محببا يأتى من خلفها ..

تك .. تك ! تك .. تك !

كانت تكره هذا الصوت منذ جاءت فانتازيا ، لكنه برغم هذا يجلب
لها الكثير من الألفة .. يعنى أن هناك من تعرفه هنا .. هناك شخص من
قريتها وسط هذا المكان العجيب ..

- « مرشد ! .. إلى أين أخذتنى عليك اللعنة ؟ »

- « لطيفة كالعادة يا أليس »

كان باردًا كعادته .. يدس أطراف أصابعه فى عروة السروال
وبدلته السوداء التى لم تتغير قط طيلة هذه الأعوام .. لا يشيخ ولا يمل
ولا يزداد ظرفًا .. لكنه مفيد برغم هذا ..

قال لها وهو يركل الرمال بقدمه ليطفئ بقايا النار المشتعلة
النيران التى كان امرؤ القيس يلتهم عشاءه عليها :

- « الأمر سهل .. أنت فى وادى عبقر »

- « يا سلام !! »

انحنى لينزع لنفسه فخذًا مشويًا من الأرنب الذى يتم شيه ، وقضمه
فى تلذذ ثم واصل كلامه :

ـ « وادى عبقر .. حيث يأتى العباقرة ! .. أسطورة عربية قديمة . المفترض أن هذا الوادى موطن للجن .. إنه أكثر ازدحاما من مترو الأنفاق الساعة الثانية ظهرا .. تحت كل حجر عفريت .. »

ـ « هذا ليس جديدا .. خالى كان يقول : لنا فى كل خرابة عفريت »

قال المرشد غير مبالٍ بمقاطعتها :

ـ « المفترض أن الجن هنا شعراء .. كلهم شعراء .. ما يحدث هو أن شعراء عالمنا يأتون ليلاً إلى هذا الوادى ليتم تحفيظهم الشعر ، ثم يعودون لعالمنا ليتلوه على الناس »

ـ « هذا يعنى أنهم يقومون بعملية النقل فقط »

ـ « تقريبا »

بدت الفكرة معقولة بالنسبة لعبير .. الشاعر كائن متوحد غريب يحب العزلة .. يشرد ذهنه وتتوه عيناه ويتمتم بأبيات غامضة .. لابد أن الأمر يبدو للناس كأن مسًا من الجنون أصابه . يسهل افتراض أنه يتصل بالجن أو أنه يسافر لعالم آخر غريب .. كانت تشعر دوما أن الموسيقيين ليسوا بشرا مثلنا .. بل هم أجهزة اتصال تتلقى الموسيقا من الفضاء الخارجى .. هل تتصور أن موتسارت كان يكتب هذه الموسيقا فعلا ؟ يالك من ساذج ! .. كاتب هذه الموسيقا هو موهول 3 على كوكب نوربير .. لا شك فى هذا .

إذن يسهل افتراض أن العباقرة من وزن المتنبى أو امرؤ القيس

أو المعرى أو شوقى كانوا يسافرون لوادى عبقر ، حيث يوجد من يلهمهم الشعر الذى يعودون لنا به ..

- « وما اسم هذا الجنى الذى كان يلقن امرأ القيس ؟ »

قال المرشد فى لا مبالاة :

- « كل العفاريت تتشابه .. على العموم اسم هذا الجنى هو لافظ بن لاحظ .. كل شاعر كان له جنى متخصص يلقنه الشعر .. على العموم يوجد هنا كثير جدًا من الشعراء .. هنا مثلاً الجنى الذى كان يلهم الأعشى ، واسمه مسحل السكران .. وهناك ملهم عنترة بن شداد واسمه جالد بن قلل »

- « ودورى فى هذا ؟ »

جلس على الرمال الرطبة غير مهتم بأناقة بذلته ، وقال :

- « القصة باختصار شديد هى أنك لن تخرجى من هنا .. أنت سجينة الوادى .. »

- « هذا خبر سار .. والهدف ؟ »

- « لا هدف .. اعتبرى الأمر لعبة مسلية أخرى .. سوف تظلين هنا للأبد . فقط سوف تنطلقين فى رحلات قصيرة إلى عوالم أكثر من شاعر .. فى كل مرة تعيشين معه وتخوضين قصة قصيرة ثم تعودين . وفى النهاية تحاولين تخمين اسم الشاعر .. كلما استطعت تخمين الشاعر ، اقتربت من الحل جدًا »

كانت تحك رأسها مفكرة ..

هى لا تعرف الكثير عن الشعراء ، ولسوف يرهقها هذا كثيرًا .. سيكون الحل عسيرًا ..

كانت تفكر فى جوجل .. جوجل العجوز العبقرى الذى ستضع له مقطعًا من أى بيت شعر فيروح يبحث كالكلاب البوليسية إلى أن يخبرها باسم الشاعر . هذا حل لا بأس به ..

قال لها المرشد وقد قرأ أفكارها :

ـ « أولاً ليس هدفنا هو الغش .. هذا يفسد متعة القصة كلها ، ثانيًا من قال إنك ستسمعين أبياتًا سهلة ؟ بعض الأبيات سوف تسمعين معناها أو مقاطع منها وقد تم تحريفها .. ولكن دعينا لا نضيع الوقت ، ولنبدأ إذا أردت أن تخرجى من هذا العالم بسرعة .. »

لم تفهم بعد .. تمقت هذه الطريقة التى يتكلم بها الجميع ولديهم خلفية عن الموضوع، لكنها لا تعرف شيئًا ولا يتركها أحد تفهم ..

أيام المدرسة كان المعلم ينادى داخل غرفة المعلمين غاضبًا :

ـ « عبير ! .. عبير عبد الرحمن ! »

هى لا تفهم ما يحدث .. الفتيات يدفعنها للغرفة بسرعة وقد بدا عليهن الرعب .. تحاول أن تفهم لكن لا وقت لدى إحداهن للشرح . يقلن لها :

ـ « أسرعى .. قولى له إن الكوبرى الجديد هو السبب ! »

سبب ماذا ؟ أى كوبرى ؟ ! .. لحظة لأفهم. لكن لا وقت .. سرعان ما تجد نفسها فى عرين الأسد الغاضب .. ولماذا هو غاضب ؟ هل من لحظة للفهم ؟ هذا غير عادل ..

كذا قال لها المرشد وهو يجرها من يدها :

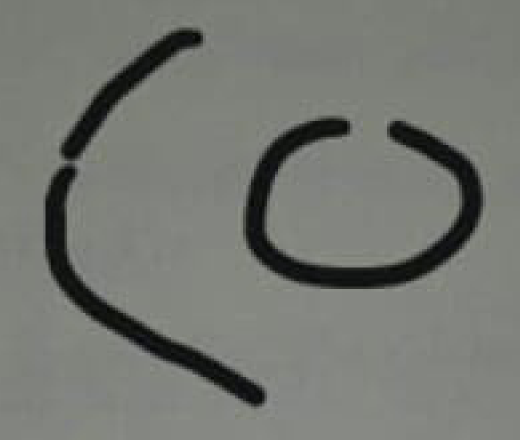
- « هلم .. الشاعر الأول ينتظرك مع الجنى الخاص به .. »

كان يقف هناك فى ظلام الصحراء .. هذا ليس رجلاً عربيًا .. هو شاب نحيل وسيم يلبس ثيابًا عتيقة .. ربما هى إدواردية أو فكتورية ؟ تدرى بالضبط .. يقف أمام جنى عريض ضخم الصدر أحمر اللون يتقد النيران .. رأس الجنى فى حجم الرجل تقريبًا .. لذا جثا على ركبتيه ليقرب فمه من أذن الرجل .. بعد ما أوقف النيران طبعًا وإلا لحوله إلى شواء .. المشهد الذى ذكرها بلقطة مماثلة فى فيلم (لص بغداد) ولم تستطع فهم ما يقول لأن الجنى كان يتكلم بإنجليزية عتيقة .. لكن الشاعر النحيل راح يهز رأسه كأنه يحاول الحفظ ..

سرعان ما انفتحت الثغرة .. واختفى الشاعر .. وهنا فوجئت بأنها تدخل نفس الثغرة .. رأت أنها تدخل دوامة طويلة كنفق دوار .. شعور مخيف يشبه أن تهوى بك عربة الملاهى .. صاحت بصوت تردد كالصدى مئات المرات :

- « وداعًا يا مرشد .. لا تنسنى هناك !! »

ترى كيف يكون العالم الذى تنزلق له ؟ هل تنجح فى حل اللغز ؟



الشاعر الأول

(ستة وثلاثون عامًا)

- 1 -

بعد ستة وثلاثين عامًا ..

كان هناك يلفظ أنفاسه الأخيرة ..

بدا لها من الحظ العاثر أن تبدأ مغامرتها مع شخص يموت .. هذ[illegible]
ليست بالبداية المشجعة .

الأسوأ كان أنه راقد في خيمة .. خيمة باردة جدًا ومظلمة .. هنا[illegible]
شمعة مشتعلة جوار الفراش الذي كان حشية مفروشة على الأرض.
وهناك مجموعة من القوارير التي تحوي الأدوية والعقاقير .. من
السهل أن تخمن أنها بلا جدوى .. الطب في ذلك العصر لم يكن ذ[illegible]
جدوى تقريبًا .

كان العرق يغمر جبينه ، وبشرته محتقنة .. شفتاه جافتان وثمة
القشور تلصقهما بحيث يجد صعوبة في الفتح .. وكانت هناك كدمات
على جبينه .. برغم إرهاقه الشديد والموت الواقف في الخيمة ، فإنها
أدركت أنه - الشعر وليس الموت - وسيم جدًا .. أقرب لتماثيل أبولو
التي كان الشعراء يصنعونها .

غريب هذا ؟ على قدر علمها لا يوجد شاعر وسيم سوى محمو[د]
درويش .. كان الشاعر هو الأرض السوداء الموحلة التي تخرج [أ]
الثمار وأروعها .

كانت تعرف أنه ليس من حقها أن تسأله عن اسمه .. لكنها تعرف

رفعت فقال بصوت مبحوح :

ـ « أنا الشاعر الذى عشقته النساء .. »

يالك من مغرور .. ومم تشكو بالضبط ؟

ـ « هى الحمى .. »

فهمت ما يريد قوله . فى ذلك الوقت كانت الحمى تشخيصا محترما فى حد ذاته كأنها مرض مستقل . الحقيقة أن أى ارتفاع فى الحرارة حمى ، بدءا بالتهاب اللوزتين والتهاب بالطاعون وحمى إيبولا المخيفة ..

قبل عصر المضادات الحيوية كانت الحمى هى الموت غالبا .. الطبيب شخص حكيم يصل للبيت ويوصى بلصقة من الخردل ويجرى فصدا للمريض ، ثم يتناول العشاء مع الأسرة ويرحل ..

هنا دوى صوت انفجارات . انفجارات ترجرجت لها الخيمة وتراقص لهب الشمعة . وسقط دورق ماء جوار الفراش .

عبر ستار الخيمة ترى الوهج يمزق ظلام الليل . تشم رائحة البارود .. تسمع من يصرخ فى الخارج :

ـ « إلى المتاريس !!؟ »

إذن ليس الموضوع مجرد شاعر يحتضر .. إنه يحتضر فى ميدان القتال .. وهو غير جريح .

قال لها وهو يرتجف :

- « رجال الباشا يهاجمون مرة أخرى .. لكننا سوف نهزم
ولسوف يحلق علمنا فوق التلال .. للأسف لن أكون موجوداً لأرى
المشهد .. »

ثم مد يده الباردة فتناول أناملها .

شعرت بضغطة قوية أرسلت كهرباء في عمودها الفقرى ، وتطرد
ه فادركت أنه يحبها .. يحبها بعمق .. ليست مجرد ممرضة إذن .

لكن رجال الباشا ؟ هل دخلت لإحدى التمثيليات التركية التي تملأ
الفضائيات ؟ لا يبدو هذا جو باشوات بتاتاً .. ومن الذين سيهزمون؟

قال لها همساً :

- لو رأيتك بعد هذه السنين فكيف سألقاك ؟

سألقاك بالصمت والدموع !

شعر إنجليزي لكنها تفهمه جيداً ..

هنا شعرت بمن يضع يده على كتفها وسط تورطها العاطفي
استدارت للخلف مجفلة ، فاكتشفت أن هذا هو المرشد . كانت في عينيه
نظرة ذات معنى .. قال لها :

- « هيا يا أوجستا .. فلنبتعد .. »

اسم غريب لكنه جميل .. مغامراتها مع الضباط كانت قاسية لكنها
عاطفية جداً .. لكن لماذا يجب ترك هذا المحتضر ؟

قال المرشد في إصرار :

- « من الخطر أن نقف هنا »

على الأرجح لابد أن هذا الشاعر المحتضر يموت بالدرن .. فى ذلك الزمن كان كل الناس يحبون أن يموتوا بالزهرى أو الدرن .. لابد أن لهذا قوة القانون .

قالت فى عناد :

- « لكنى لم أعرف بعد .. »

قال المرشد وهو يبعدها عن المحتضر :

- « فتشى فى ذكرياتك .. ستعرفين عنه أكثر .. »

نعم .. سوف تبحث فى ذكرياتها ... لا شك أنها ستجد شيئًا آخر ..

★ ★ ★

فى حذر خرجت خارج الخيمة .. فرأت أن هذا هو الليل .. المفترض أنه الليل .. بالطبع هناك حرائق فى كل مكان ودخان يتصاعد لعنان السماء . مشهد مرعب هو أن ترى أضواء النيران تتوهج على الدخان الرمادى .

القذائف تحلق فى الهواء ، وتسقط فتنفجر .. يبدو أنها قذائف بدائية جدًا .. مما كان القدماء يسمونها (قنبر) .. خيول تصهل قبل أن تتعثر وتموت .. وفرسان بترت أطرافهم يصرخون طلبًا للرحمة ..

سمعت من يهتف وسط الدخان :

- « أمان ربى أمان .. !! »

وسمعت من يهتف :

ـ « هلم يا أبناء اليونان اسحقوا هؤلاء العثمانيين الملاعين !!! »

لحظة .. الشاعر المحتضر لم ينطق حرفًا باليونانية .. كان يتحدث إنجليزية عتيقة .. من الواضح طبعًا أن هذه حرب عثمانية يونانية ومن الواضح أنها فى جانب اليونانيين . ارتبط العثمانيون بالفتح والقتال فى أذهان الأوروبيين ، وحتى اليوم يطلقون لفظ (تركى) على كل مسلم .. لكن من جاء بالإنجليزية هنا ؟

ما القصة ؟ وماذا أتى بالشاعر الرقيق هنا ؟

خرج المرشد من الخيمة ، وكالعادة سمع أفكارها فقال :

ـ « هو تحمس جدًا للحرب العثمانية اليونانية وأخذ صف اليونان .. هكذا سافر ليشارك فى القتال . هذا يذكرك بموقف هيمنجواى الذى سافر لأسبانيا ليشارك فى الحرب الأهلية .. لكن القدر لن يمهل شاعرنا .. سوف يموت هنا .. »

ـ « بالحمى ؟ »

ـ « هذا هو التشخيص النهائى فى زمننا هذا ؟ »

ـ « فى أى عام نحن ؟ »

ابتسم فى خبث وقال :

ـ « هو تاريخ قريب من 1820 .. لن أذكره بدقة حتى لا تبحثى فى جوجل عن شاعر مات فى ذلك العام ! »

- 2 -

تصحو الذكريات ..

الأمطار تنهمر بلا توقف .. الطريق غارق فى الأوحال ..

لسان برق يشق الطريق، ومن بعيد تبدو كلية ترينتى العريقة .. عروس كامبردج .. فى هذا الممر سيمشى داروين يومًا ما ..

ترتجف من البرد، وهى تقف ملتحفة بعباءتها ..

تعرف جيدًا أنه سيخرج الآن ويمشى فى هذا الطريق ..

لم يكن أحد من المارة هناك ، لكنها شعرت بشفقة نحو ذلك المتسول الملتف بمعطف والذي وقف حاملاً كوزًا معدنيًا .. كوزًا امتلأ بالماء، كأن هناك أحمق سيمشى الآن ويضع له صدقة . من المجنون الذى يمشى فى وقت كهذا ؟

هى طبعًا ...

وهو ....

من بعيد رأته يخرج من باب الكلية المعدنى .. يرفع مظلة فوق رأسه ، ثم يغير رأيه فيزيح المظلة جانبًا كأنه يريد أن يغسل المطر شعره ، يغسل الإرهاق على ملامحه ..

رباه ! .. أبوللو قد عاد من جديد ! يا لجمالك أيها الشاعر المجهول !

لكن لكل شيء إذا ما تم نقصان ، كما يقول شاعر آخر إنه يعرج
بقوة .. من الواضح أن له قدمًا شوهها شلل الأطفال قديمًا
فيما بعد ستعرف عبير أنه حساس جدًا لقدمه هذه ، وهو مستعد لأن
يتشاجر في أي لحظة إذا خطر له أنك تنظر لهذه الساق .

كان يمشي ببطء وهو يرشف المطر بلسانه .. بوجهه .. مر أمام
المتسول المتحمس لعمله ، فبحث في جيبه عن قطعة عملة دسها في
الكوز المعدني ، ثم رفع عينه نحو المتسول وارتجف .

أزاح المتسول الغطاء عن رأسه فإذا بشعره الأحمر رائع الجمال
ينتثر يمينًا ويسارًا .. الشعر الذي جعله البلل يلوح بالفتنة. هذه جين
واتسون .. فتاة متنكرة .. عرفتها عبير من هذه المسافة. المرأة
بارعة الحسن التي انتحر من أجلها ثلاثة رجال ، لكن قلبها ظل
باردًا كثلوج الشمال .. جين الثرية ونجمة المجتمع ..

برغم هدير المطر سمعت عبير جزءًا من المحادثة :

- « أنت هنا ؟ »

- « أنا جاريتك ! »

قالتها الفتاة ثم انحنت لتجثو أمام الشاعر .. تجثو وسط الماء الذي
أغرق الشارع .. لا غرابة في أنها لن تبتل أكثر .. فهي ظلت تحت المطر
ساعة على الأقل .. لا يمكنك أن تبلل قطعة إسفنج بعد ما ملأتها
بالماء .

- « ستموتين بالتهاب رئوى يا حمقاء ! »

- « إذن سأذهب إلى جنتك ! »

وتمسكت بكفه وانهالت لثمًا على أطراف أنامله ، فتصلب للحظة كأنه ينعم عليها بهذه الصدقة العاطفية ، ثم سحب يده فى حزم وأرغمها على النهوض :

- « جين .. عودى لدارك !.. أنا لن أحبك أبدًا ! »

- « أتوسل لك ..! »

- « لا تهينى نفسك مع من لن يقبل بك أبدًا»

ثم تركها وشرع يجد السير نحو آخر الشارع بينما ظلت هى راكعة فى الوحل تنظر له فى وله ، وسرعان ما استوقف عربة ذات حصان، يغطى الحوذى رأسه ورأس الجواد بغطاء ثقيل . لم يكن المشمع قد اخترع بعد ..

لحسن الحظ أنه لم ير عبير

وقفت عبير ترمق الموقف فى ذهول .. ما سر نجاح هذا الشاعر المغرور مع النساء لهذا الحد ؟

* * *

الشموع تشتعل فى كل مكان ..

خوان كبير ممتد عليه ما لذ وطاب من طعام وشراب ..

خادمات شبه عاريات يرحن ويجئن حاملات قنانى الخمر ، هن

يملأن الأقداح ويغنين في عذوبة .. أما عن الجالسين الثملين فهم يلبسون ثيابا سابغة كثياب الرهبان .. العباءات ذات القلنسوات التي تغطي الوجوه.

أثار رعب عبير أنهم يمسكون بجماجم بشرية .. جماجم بشرية صقيلة تم نشرها بحيث صارت آنية صالحة لشرب الخمر !!

هناك كان الشاعر الوسيم جالسا مع رفيقه شيلي يشربان ويضحكان هنا تصايح بعض الجالسين طالبين قصيدة .. قصيدة .. لاحظت عبير أن من الطبيعي أن يذكروا اسم الشاعر مع هذا الرجاء ، لكن قوانين فانتازيا صارمة .. لا أسماء ..

لاحظت عبير أنه لا يمس الطعام بتاتا .. برغم أن الطعام كان شهيا مغريا ..

فيما بعد ستعرف أنه عاش أقسى ريجيم في تاريخ البشرية باستثناء ضحايا المجاعات طبعا ..

نهض ملوحا بالجمجمة التي كان يشرب فيها ، وكشف عن وجهه فشهقت النساء انبهارا ..

قال بصوت رخيم متقد خلق لقول الشعر:

« في شخصه اختلط ـ بلا تفسير ـ الكثير مما تحبه وما تمقته وما نبحث عنه وما تهابه الآراء تتباين حول الجانب المخفي منه لكن ما كان أحد لينساه في المدح والقدح .

صمته كان موضوعا لجدلهم ، وكانوا يحاولون تخمين مصيره ..

ماذا كان في الماضي ؟

هل هو شخص استبد به المقت ؟

برغم هذا كان بينهم شخص هادئ بين أشخاص مرحين ..

لكنه يملك تلك الابتسامة التي يراها الناس كثيرًا

ابتسامة لا تذهب لأبعد من شفتيه ..

ولا يمكن أن ترى ضحكتها في عينيه »

وسط الصمت انفجرت ضحكة أحد الجالسين ، فبدا الضيق على الشاعر لأنه قوطع. قال الرجل الثمل :

- « مثل ابتسامتك أنت ! »

نظر له الشاعر في كراهية وقال :

- « أعتقد أنك تتعمد استفزازي ! »

- « ربما ... »

هنا صرخ الجميع لأن الشاعر أخرج غدارتين من جيبي العباءة . غدارتين من الطراز المزخرف الشائع في ذلك العصر ، ولوّح بهما في الهواء ، وفجأة أطلق طلقة مزدوجة نحو السماء ..

- 3 -

صرخت عبير رعبًا، لكن فتاة شبه عارية بجوارها همست

- « لا تقلقي .. هذا ديدنه كلما غضب ! »

وقالت أخرى في انبهار:

- « يتشاجر 71 مرة يوميًا !! أحب الرجل الذي يتشاجر كثيرًا »

ساد الصمت من جديد فأعاد الشاعر القدارة لجيبه، ومد يده ل
أخرج قبضة من شيء ما وراح يمضغه في عصبية. هذا تبغ بلا شك
هكذا يفعل البحارة ... ثم إنه بصق على الأرض بلا تحفظ وعاد يقرأ

« لن أسأل عن المكان الذي فيه ترقدين

ولن ألقي نظرة على البقعة

هناك ستنمو الأزهار والأعشاب

لن أراها

يكفيني أن أبرهن على أن ما أحببته

يتحلل مثل التراب

لا أحتاج لصخرة تقول لي

إن ما أحببته بهذه الحرارة كان هباء »

بدأ يرتجف ودمعت عيناه .. وأدركت عبير أن هذا الشعر يخرج

وحه فعلاً .. لكنها تعرف كذلك أنه لقن هذا الشعر فى وادى عبقر .. هى
أت المشهد بعينيها ..

* * *

وقفت تراقب المرج حيث كان الشاعر يجرى للرياضة ..

الغريب فى الأمر أنه لم يكن يلبس ثيابا خفيفة .. كان يلبس عدة
أثواب ثقيلة فوق بعضها

سمعت خطوة من خلفها فاستدارت .. رأت أن هذه هى العاشقة
مجنونة جين .. التى وقفت ليلة تحت المطر ، وكانت تراقب الشاعر
ذى يمارس رياض الجرى وهى تشهق انبهارا ..

نظرت لها عبير فى حيرة فقالت :

- « هذه عادته كلما جرى .. يريد أن يعرق بغزارة ليقل وزنه ! »

فهمت عبير .. الأمر إذن نوع من الساونا التى اخترعها لنفسه ، لكن
طبيب يعرف أن الوزن الذى يفقد بالعرق لا قيمة له لأنك تسترده بعد
دة أكواب من الماء ..

بعد ثلاث دورات عاد الشاعر .. بالفعل كان العرق يتساقط من
اجبيه وجبهته وكان يلهث جائعا للهواء .

قالت له جين سوانسون فى إغراء :

- « لقد جئتك بطعام تتبلغ به .. لابد أنك جائع ! »

طعام ؟

لوجدت عبير بالمخبولة تخرج لفافة صغيرة فتفرغ في كف الشا
حفنة من بقسماط مطحون ، ثم أمسكت بزجاجة صغيرة من الز
وسكبت قطرات على البقسماط . راح الشاعر يلعق هذا الخليط
(يسفه) لو صح التعبير .

هذا هو غداء الرجل !... لقد بلغ خوفه من البدانة درجة مرض
لكن مهما كان جنونه فالنتائج ممتازة .. إنه بالفعل من أوسم من ر
عبير في حياتها ، حتى خطر لها أن تجرب ريجيم البقسماط بالز
هذا .

وضعت الحسناء جبين يدها على خده وطلبت منه أن ينشد بعض
الشعر .. مكافأة لها على وجبة الغداء الدسمة هذه . شرب جرعة من
النبيذ فنبت عرق جديد على خديه ، وأزاح العباءة الغارقة في العر
عن رأسه .. وقال :

- « هي تمشي وسط السحر والجمال
كأنها ليلة بلا سحب وسماء مليئة بالنجوم ..
وكل ما هو جميل في الظلام والنور يلتقي في وجهها وعينيها
ثم تعتقه لبصير ذلك النور الرهيف الذي تبخل به السموات عن
النهار المبهرج ..
لو زادت الظلال ظلاً ...
لو قلت الإشعاعات قليلاً

لتضاءلت للنصف هذه الروعة التي لا توصف ...

التي تنبع بلطف من وجهها .

حيث تعبر الخواطر عن نفسها بنعومة

فما أروع وأرق موضعها ! »

للأسف لا يمكن نقل روعة هذا الشعر بالإنجليزية . الترجمة تفقده الكثير ، لكن يظل أفضل الشعر هو الذي تمكن ترجمته . كانت عبير تحاول أن تخمن اسم الرجل ...

* * *

هناك في الخيمة على الجبهة دوى صوت قنبلة تركية أخرى تسقط ..

ارتج المكان ...

هنا فتح الشاعر عينيه المتعبتين وصاح:

- « ميدورا ! .... »

وحاول النهوض لكن الحمى والإرهاق استبدا به فسقط من جديد ...

قالت عبير للمرشد في حيرة:

- « قلتما إن اسمي أوجستا .. ما موضوع ميدورا هذا ؟ »

- « هذا اسم الشفرة .. يستعمله ليعبر عنك في قصائده فرارًا من الرقيب .. »

ركعت على ركبتيها جوار الشاعر ، فأدركت أن اللحظات الأخيرة قد بدأت ، وهو مشهد قاس بحق .. كانت يده تتمسك بالأغطية وكانت عيناه ترتجفان في المحجرين ، على ضوء الشمعة الواهن سرعان ما ماتت الشمعة من فرط الاهتزازات وتفريغ الهواء وساد الظلام ...

قال المرشد في حزم :

- « لنبتعد لقصة أخرى .. هل تمكنت من التخمين ؟ »

قالت في ضيق :

- « لا .. لا أعتقد .. لكن كيف أتركه في ظرف كهذا ؟ لعل آخر لحظة يمكن لمرأة أن تترك فيها رجلا يحبها هي اللحظة التي يموت فيها ! »

شد معصمها بقوة وجرها خارج الخيمة جرًا ، وهناك وقفت ترى الحرائق في كل مكان .. هذا كابوس .. الدخان .. الصراخ .. جثث الخيول ..

قال لها المرشد :

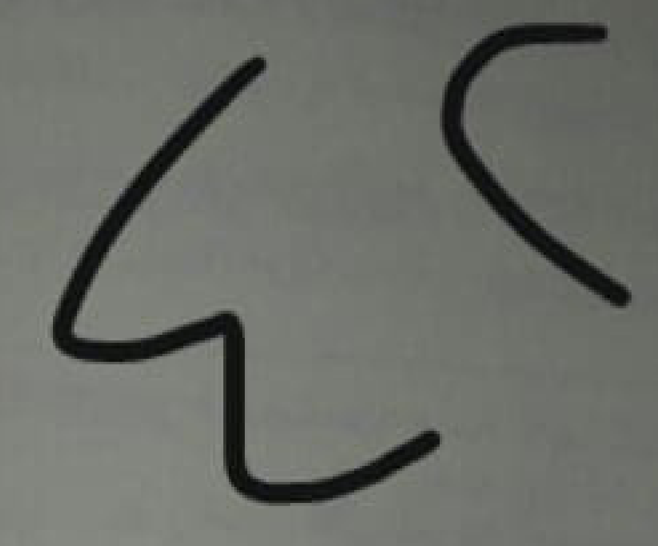
- « سيموت خلال دقيقتين لكن الخطأ هو الخطأ سواء دام عمرًا أم دقيقتين يا أوجستا هانم .. لقد قضيتما حياتكما تحاولان أن يعيش هذا الحب المستحيل ويورق ، لكن العالم كله كان ضدكما وحاربكما وبصراحة كان مع العالم كل الحق .. »

- « أي خطأ ؟ »

قال وهو يخطو معها وسط الأشلاء المتناثرة والدماء مبتعدا عن الخيمة :

ـ « أوجستا هي أخت الشاعر غير الشقيقة ! » .

هل تمكنت من معرفة الشاعر ؟ ابحث عنه وسط قائمة الشعراء التي قابلتها في البداية . خذ رقمه .. ظلّل المربع الذي يحمل هذا الرقم في آخر الكتيب



الشاعـــر الثانـــى

(فرسان الهجاء)

- 1 -

من جديد هي في وادي عبقر ..

الصحراء المظلمة التي يجب أن تخمن أسماء الشعراء لتخرج منها .

كانت واقفة هناك وقد بدأت تشعر بألفة . على الأقل هي تفهم قواعد اللعبة الآن برغم أنها لم تستطع بعد تخمين اسم أول الشعراء الذين قابلتهم . المشكلة كذلك أن هذا الشعر مترجم .. يصعب البحث عنه في شبكة الإنترنت .

رأت شاعرًا قصير القامة أقرب للبدانة ، يمشي في الظلام متجهًا نحو ثغر في الجبل، ثم حدث ما تتوقعه .. من مكان ما حلق كائن له جناحان ، يتوهج في ظلام الليل كالجمرة . ثم هبط كأنه طائرة عمودية أمام الشاعر وسمعته ينشده بعض أبيات الشعر والشاعر يهز رأسه موافقًا ..

« أني . ترن رن تارا را را .. را راترلم ترلين

« حبا .. ترلم رارا ترا .. لا لا .. ترلم في رلين »

ألعاب فانتازيا المألوفة .. واضح أن بيت الشعر هذا شهير جدًا بهذا أخذت فانتازيا معالمه . ثم إنها شعرت بفجوة تنفتح ، وأدركت أن الشاعر يغيب فيها ، ثم شعرت بأن نفس الدوامة تجرها معها لأعلى... نفس الشعور الذي شعرت به في المرة السابقة .. إلى أين ؟

* * *

كانت هناك واقفة فى مطبخ الدار .. دار عتيقة تنتمى للعصر الأموي أو العباسى كما هو واضح .. هناك موقد كبير عليه قدر .. لابد أن الشيء فى القدر هو الثريد ..

جلست على حجر كبير ، وواصلت ما كانت تقوم به ، وهو نتف ريش دجاجتين مذبوحتين .. عملية قذرة وهى تمقتها ، لكن من الواضح أن هذا دور أساسى لها .

ثم إنها وضعت السمن فى مقلاة ، وبدأت تضع الثوم المطرو فتصاعدت رائحة جميلة مع صوت الششششششششش .. من المؤكد أن هذا الجو لا يمكن أن توجد فيه ملوخية .

هنا شعرت بوجود شخص ..

التفتت للوراء فرأت أقبح شخص رأته فى حياتها .. فى الواقع تذكرت أنها قابلته عندما كانت مع سيبويه .. كان الشر يرتسم على ملامحه خاصة مع حاجبيه الثائرين المتكوشين .. كان كثيفًا كذلك ، لكن عينيه تحولتا لبيضتين جاحظتين ، وقد غطت آثار الجدرى القديم وجهه ، وكانت تنبعث منه رائحة كريهة .. هى خليط من قذارة الأنفاس ورائحة الخمر وقلة الاستحمام وسواد الأفكار .

وثبت من مكانها فى رعب وقد أدركت أنه جاء من الباب المفتوح على الشارع ، والأدهى أنه كان يتحرك نحوها كوطواط .. يستطيع تحديد موضعها بدقة

ثم شعرت بيده الخشنة ذات الأظفار تلتف على معصمها

بالشهوانية ! .. المرأة تملك القدرة على تمييز الشهوانية فى لمسة والبراءة فى لمسة أخرى .. كادت تصرخ ، لكنه قال لها :

ـ « أنا جائع يا ربابة ! »

جوع ؟ هذا يسهل الأمور .. قالت له وهى تتراجع :

ـ « الطعام يكفى أهل البيت فقط .. ليس بوسعى أن ...... »

ثم تذكرت أنه شاعر عظيم .. قيل إنه أشعر شعراء العرب وقتها ، فقررت أن تحصل منه على شىء ثمين .

ـ « أريد أن تذكر اسمى فى بيت شعر لتذكرنى الأجيال القادمة ! »

فكر للحظة ثم قال :

« ربابة ربة البيت ★ تصبّ الخل بالزيت

لديها عشر دجاجات ★ وديك حسن الصوت ! »

بيت شعر غريب ومضحك .. لكنه يؤدى الغرض ، ومن العجيب أن هذا البيت سيخلد اسمها عبر العصور ، وسيذكره الناس برغم أنه من الأغراض الشعرية الغريبة : الدناوة ..

مدت يدها واقتطعت فخذ دجاجة دستها فى رغيف ، ثم قالت له ما معناه : « وربنا عرض كتافك » .. فحمل طعامه وهو يصدر فحيحًا ينم عن الرضا ، وانصرف .. الحقيقة أن لديها خمس دجاجات بعد وجبة اليوم .

كان لابد أن تشعل بعض الأعشاب لتزيل أثر رائحته الكريهة ..

تعرف هذا الرجل وتعرف أنه زنديق .. شعوبي النزعة، أي أنه يهاجم الإسلام والعروبة من داخلها . وتذكر أنها رأت رجلاً متدينًا يقود بغلة في السوق فرفسته في بطنه .. طار الرجل وسقط على الأرض ، لكنه من إيمانه قال :

ـ « أي ! .. الحمد لله ! »

مر الشاعر الضرير بالرجل فسأل عما هناك فشرحوا له . قال الرجل في سخرية:

ـ « استزده يزدك ! »

* * *

هكذا لم يصدمها كثيرًا أن تراه متهمًا بالزندقة ..

كانت هذه هي البصرة وقد امتدح هذا الشاعر حكام العصر الأموي والعصر العباسي معًا .. فهو كان يعمل فقط بمبدأ اللذة .. لكنه كان يكره الجميع .

الخليفة المهدي أمر رجاله بالقبض على الشاعر ، فجاءوا به إلى القصر ، هناك جردوه من ثيابه وربطوه أمام الناس في ساحة القصر برغم كل شيء بدا المشهد قاسيًا لعبير ، وهي ترى رجلاً كفيفًا مسنًا يجلد . لا تنس أن الشاعر كان في السبعين وقتها

قال الخليفة للجلاد :

- « هيا !.. سبعون جلدة ! ولا تكن رفيقًا به .. أريد أن يتم هذا

ببطء ! »

تقدم الجلاد وهو يكتم أنفاسه بحزام حتى يقلل الرائحة ، ثم هوى

بطرف السوط المبلل بالزيت على ظهر الشاعر .. صاح هذا من الألم:

- « حسس ! »

وهو اسم فعل بمعنى (أتألم) ...

هوى سوط آخر فصاح (حسس) .. سوط ثالث .. (حسس) ...

قال أحد من وقفوا يراقبون المشهد:

- « الزنديق .. لو قال بسم الله الرحمن الرحيم مع كل جلدة لهان

الألم »

لم يستطع الشاعر أن يسيطر على لسانه فصاح:

- « ويحكم !... أهو تريد فأسمي عليه ؟ »

بلغتنا المعاصرة يقول : "هيا قلة ؟ » ... حسس !.. حسس !

كانت هذه هي نهاية الشاعر لأنه لم يتحمل السبعين جلدة .. حملوه

إلى بيته حيث أرقدوه على بطنه ودهنوا ظهره بالأعشاب .. كان الناس

يزورونه لأنهم يخشون أن يعود للحياة ، فيسلقهم بشعره البذيء ..

لكنه مات بعد يومين من فرط الألم وتسمم الجرح .. وتميزت جنازته

بأنه لم يمش فيها أحد على الإطلاق !

- 2 -

عامة كانت مشكلة شاعرنا الضرير - قبل أن يموت - خلافه المزمن مع شاعر آخر سليط اللسان ولا يقل عنه فى المجون ، وبين الرجلين قصص طويلة تذكرك بأفلام توم وجيرى .

الحقيقة أن الشاعر الذى كان على خلاف معه قد استطاع أن يبكيه فعلاً ، عندما وصفه فى أحد أشعاره بأنه يشبه القرد . هذا بالطبع لو كف بصر القرد ..

بكى شاعرنا الكفيف فسألوه عن السبب فقال:

- « يرانى فيصفنى ولا أراه فأصفه ! »

كان هذا نوعًا من الجزاء العادل .. لابد للشاعر الصفيق الوقح أن يجد شاعرًا صفيقًا وقحًا آخر ..

كان شاعرنا سريع البديهة فعلاً ، ولهذا طال عمره قليلاً لأن الخليفة وجد فيه شيئًا ظريفًا ، وتسامح معه كثيرًا ، برغم أنه هو نفس الخليفة الذى سيقتله جلدًا بالسياط يومًا ما .

ذات مرة كان واقفًا ينشد شعره للخليفة المهدى .

هنا دخل خال الخليفة للمجلس .. تصرف بالطريقة المعتادة وسأل الشاعر :

- « ماذا تفعل ؟ »

وهو يشبه طريقتنا عندما نفتح باب الشقة فتسألك أمك : « هل جئت ؟ » . هناك إعلان تلفزيوني شهير لأحد أنواع الشاي يسخر من هذه الطريقة . وقد كان من الصعب على الشاعر سليط اللسان أن يسيطر على نفسه لدى سماع هذا السؤال السخيف:

- « ماذا تفعل ؟ »

قال في برود:

- « أثقب اللؤلؤ ! »

انفجر الجميع في الضحك وضحك الخليفة نفسه ، فقال الشاعر في غيظ:

- « ماذا أقول له ؟ يرى رجلاً ضريرًا ينشد شعرًا أمام الخليفة فيسأله عما يفعله ! »

لم يستطع الخليفة أن يغضب . لقد سخر الشاعر من خاله، لكن السبب وجيه فعلاً.

* * *

كان من أصل فارسي .. ويحمل جذورًا مجوسية قوية ويقدس النار..

كان زنديقًا يكتم زندقته خوفًا من أن يجلد أو يعاقب..

برغم كل شيء له أشعار شهيرة قوية جدًا ، ومن الواضح أنه موهوب . كانت عبير قد تعلمت درسًا لم تنسه منذ عاشت مع

فقيل لها إن العباقرة ليسوا أفضل مثال أخلاقي يحتذى
الفلاسفة ، بل إن بعضهم أشرار .. والحقيقة أن هذا الوغد كتب أكثر من ٢٠ ألف
قصيدة معظمها لم يصلنا لأسباب رقابية .. في اللحظات السعيدة التي
لا يملأ فيها الأبيات بالكفر الصريح ، كان يملؤها بالجنس الفاحش
تلك الألفاظ الفاحشة التي لا تراها إلا في الفيس بوك اليوم .. حتى
لو ذهبت إلى السلخانة فلن تسمعها .. لكن لديه شعرًا غاية في الرقة

قد لامني في خليلتي عمر

واللوم في غير كنهه ضجر

قال : أفق .. قلت : لا .. قال : بلى

قد شاع في الناس منكما الخبر

ماذا عليهم ؟ ومالهم خرسوا ؟

لو أنهم في عيوبهم نظروا

أعشق وحدي .. ويؤخذون به

كالترك تغزو .. فيؤخذ الخزر

وفي هذه القصيدة يقول إنه قبّل حبيبته بقوة فأدماها .. قالت له ما
معناه : « يا للكارثة ! .. ماذا أقول لأمي إذا رأت أثر هذه القبلة ؟ »
قال لها في نهاية القصيدة هذا البيت العجيب :
قولي لها : بقة لها ظفر

إن كان فى البق ماله ظفر !!

بصرف النظر عن تعبير وجه الأم عندما تخبرها ابنتها بأن هناك بقة لها ظفر ، فإن البيت يحوى عثرة ذوقية رهيبة .. مالنا والبق و(الأكلان) هنا ؟

الشاعر يرتكب الكثير من هذه العثرات الذوقية فيصف جارية حسناء قائلاً :

إنما عظم سليمى قصب

قصب السكر لا عظم الجمل

فإذا أدنيت منها بصلاً

غلب المسك على ريح البصل !

صورة غريبة جداً .. بصل وقصب سكر وبق. برغم هذا تظل أشعاره فى مجموعها رائعة وبعضها رقيق جداً ..

* * *

حسس ! حسس !

* * *

وكانت عبير تراقب الشاعر فى ذلك المجلس .. كان القوم يعزفون والمعازف والرق تصدح ، وبالطبع نهضت بعض الجوارى يرقصن لكنه لم يكن قادرا على رؤية شىء ..

كانت هناك مطربة حسناء تمسك بالعود وتنشد الشعر .. هذا البيت الجميل لجرير الذي قيل إنه أرق بيت في الغزل قالته العرب

إن العيون التي في طرفها حور ★ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

كانت عبير تعرفها .. اسمها عبدة .. لسوف تكون هي الحب الوهم في حياة الشاعر ... وكانت عبير كذلك تعرف أن الشاعر يهيم هذا بشعر جرير الذي قال هذا البيت ..

تشمم الشاعر الهواء حتى وجد (عبير) التي يعرفها باسم ربابة دنا منها ورائحته تزكم أنفاسها ، وهمس :

- « هذه التي تغني وتتكلم الآن .. هل تعرفين من هي ؟ »

قالت عبير وهي تكتم أنفاسها :

- « اسمها عبدة .. يؤسفني أن أخبرك أنها فاتنة لكنك خمنت ذلك من صوتها على ما أعتقد »

طلب منها أن تصحبه لخارج القاعة ، ثم أمسك بيدها بأنامله المخلبية وقال :

- « أنت ستفعلين من أجلي أي شيء .. هه ؟ »

- « متى وضعت هذه القاعدة ؟ »

- « أنا كتبت فيك بيتي شعر سيذكرهما العرب للأبد .. ربابة ربة البيت .. إلخ »

- « وتلت فخذ دجاجة وأكلته »

قال لى لا مبالاة باعتراضها :

- « سوف تلعبين دور ساعى بريد الغرام .. أريدك أن تحملى لعبدة

هذه الأبيات :

قالوا : بمن لا ترى تهذى ؟ ، فقلت لهم

الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

يا قوم أننى لبعض الحى عاشقة

والأذن تعشق قبل العين أحيانا »

ذهلت عبير عندما سمعت هذين البيتين الشهيرين الرقيقين .. أنت عبقرى أيها الفاجر برغم كل شىء . الأزهار تنبت فى تربة سوداء قذرة فعلاً ..

ذهبت عبير بالأبيات لعبدة ، وهى خارجة من الدار مع صديقاتها .. قالت لها إن الشاعر الفلانى كتب فيها هذا الشعر . ذهلت الفتاة ونظرت لصاحباتها وهتفت :

- « يا للسماء ..! .. هذا بيت شعر رائع .. لكن .. من الفدائية التى تتحمل هذا الرجل ؟ »

الحقيقة أنها ستكون الحب الحقيقى فى حياته ، لكنها لن تمنحه أى شىء على الإطلاق .. فقط كانت تعتصر منه الشعر الذى خلدها فى الأدب العربى حتى اليوم :

يا عبد حبي لك مستــور ★ وكل حب غيره زور

إن كان هجري سركم فاهجروا ★ إنى بما سرك مسرور

على أنه وقع فى الشرك ، عندما جلس فى مجلس لا يرى من فيه وقد تساءل عما إذا كان هنا أحد رجال الخليفة المهدي، فقيل له : لا

لأن لديه طباع الضباع ولا يقدر على كبح بذاءته ، فقد أنشد بعض أبيات الشعر البذيئة تشتم الخليفة ، ثم أضاف يتهم وزير المهدى بأنه هو الذى يحكم البلاد :

بني أمية هبوا .. طال نومكمو

إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا

خليفة الله بين الناى والعود !

كانت هذه هى الأبيات التى وصلت برغم كل شيء للخليفة ، وكان أن اتهم الشاعر بالزندقة وكانت العلقة التى لم يصح منها قط ..

حسسسسسسسس !!!

★ ★ ★

عندما جاء المرشد يقودها من بيت الشاعر المحتضر ، قالت له فى لهجة الانتصار :

- « شعراء قليلون جدًا كف بصرهم .. إن دائرة الاختيار ضيقة

ثم إنك قد نسيت أنني قابلت هذا الرجل في قصة سابقة .. عندما كنت مع سيبويه .. »

أصلح المرشد من ربطة عنقه وهو يمشي معها وسط شوارع البصرة ، وقال :

ـ « تتذاكين جداً .. لو أنني قدمت هذا اللغز لطفل في الثالثة من عمره لحله .. هل تعتقدين أن الحياة بهذه السهولة ؟ »

ـ « ظننتها كذلك ! »

قال وهو يتأبط ذراعها:

ـ « ليس السؤال عن اسم الشاعر الضرير الزنديق .. بل السؤال عن اسم الشاعر الآخر الذي كان ينافسه ويشتمه ووصفه بالقرد !!! » .

هل تمكنت من معرفة الشاعر المنافس ؟ ابحث عنه وسط قائمة الشعراء التي قابلتها في البداية . خذ رقمه . ظلل المربع الذي يحمل هذا الرقم في آخر الكتيب .

الشاعــــر الثالــــث

(كالينكا .. كالينكا)



- 1 -

كانت تمر بذات اللحظات في وادي عبقر .. من الواضح أنها ستمر بها مرارًا ..

نفس الظلام ونفس الصحراء الباردة . يبدو أن الشمس لا تشرق هنا أبدًا .. من العسير أن تتخيل أنها ستمضي باقي حياتها هنا . لو كان هذا فالموت أهون .

رأت من بعيد شاعرًا آخر ..

كان ينشد الشعر كأنه يرقص .. ينقل قدميه بخفة ورشاقة على الرمال ، وكان يتكلم بلغة لم تفهمها .. فيما بعد ستفك طلاسم هذه اللغة ، لكنها استطاعت أن تخمن الآن أنها الروسية .. عندما يقول الشخص (داسفاديم دوبريوتشكا) فهو يتكلم الروسية ببساطة لأنها لا تعرف كيف تبدو الصربية ..

ثم إنه وقف أمام الجني الخاص به ، وراح يصغي له وهو يلقنه الشعر ...

صاح وهو يواصل الرقص :

-« سباسيبا تافاريش .. سباسيبا ! »

ثم انفتحت الثغرة المعهودة، وعرفت هي على الفور أنها ستمضي معه إلى ذات المكان .. إلى أين ؟ غالبًا هي روسيا ما دام الرجل يتكلم الروسية !

* * *

كانت هناك على المسرح وسط الأضواء الساطعة ، وأدركت أنها رشيقة فاتنة ..

تنقل أطراف أصابع قدميها متخذة وضع البجعة الشهير .. هذ موسيقا بحيرة البجع تحفة تشايكوفسكى بلا جدال .. الكل مفتون بها الكل يحبس أنفاسه ..

بدأت رقصة البجعات الثلاث المبهرة .. ضوء الكشافات يعكس لون القمر الأزرق البارد . كانت تتمنى طيلة حياتها لو شاركت فى هذا المشهد . إنها باليرينا .. إنها ساحرة .. إنها الرشاقة لو صارت امرأة ..

ثم توقفت وانحنت فى رشاقة للناس ..

تصاعد الصراخ وتطايرت الورود لتغطى قدميها ..

ثم إن بعض البحارة صعدوا على المسرح . كانوا يتكلمون الروسية ..

ركع أحدهم وقبّل يديها ، ثم أمسك بيدها فى رشاقة وبدأ يدور معها وهو يغنى :

– « كالينكا .. كالينكا »

هنا بدأت الفرقة تعزف كالينكا كالينكا .. اللحن الروسى الخالد « أيها التوت الصغير فى حديقتى » .. اللحن الذى تسمعه مع كل جهاز موسيقى أو ساعة متعددة النغمات

ترقص وتدور مع الراقصين .. تدور في دوامات. وفي لحظة من اللحظات خيل لها أنه ما من واحد يجلس في الصالة .. كلهم يرقصون معها ..

- « كالينكا .. كالينكا مايا »

حمى .. أضواء .. صخب ..

فجأة دوت صيحة عالية كأنها (سمع هس !) .. توقف الجميع في فضول ، وعلى المسرح ظهر شاب يلبس على الطريقة الروسية قميصًا واسعًا خارج السروال ، وقد ربط حزامًا على خصره .. وكان يلبس حذاء ذا رقبة .. على طريقة عمر الشريف في د. زيفاجو ..

صاح الناس :

- « لقد جاء ليشارك إيزادورا حفلها ! »

- « رائع »

إذن هي راقصة اسمها إيزادورا .. أما هذا الفتى فهو الوسامة تمشي على قدمين ، لكنه كذلك على قدر واضح من الجنون والعصبية .. كأنه نمر آدمي .. مغرور بشكل واضح ..

وقف أمام الناس فاتحًا ساقيه كأنه في تحدٍ أو مبارزة ، وهتف :

نعم .. أنت تذكرين ..

أنت تذكرين ..

كيف وقفت أصغي جوار الجدار ..

بينما رحت أنت تذرعين الغرفة

توبخينني بكلمات مريرة وكل هذا ..

قلت إن هذا هو وقت الفراق

وإن حياتي المستهترة هي محنة

لذا حان وقت بدء حياة جديدة لك

بينما قدري هو أن أتدحرج لأسفل الجبل ..

حبيبتي !

لم تبالي بي ..

لم تدركي أنني كنت كحصان جريح وسط الزحام ..

هتف الناس في نشوة وافتنان . الحقيقة أن هذه الكلمات قيلت بالروسية محتفظة بإيقاعها الأصلي فكانت تلذ للسامعين .. إلقاء هذا الرجل ساحر حقًا ، ومن الواضح أنه صغير السن .. بل هو أصغر منها بكثير..

لكنها أدركت من نظراته لها أنه عاشق !!

- 2 -

أمريكية هي .. اسمها إيزادورا ..

راقصة باليه شهيرة جدًا ، وناجحة حقًا ، وعلى قدر لا بأس به من الجمال والرشاقة .. لكنها وجدت قلبها هناك في الشرق .. مع السوفييت ودولتهم الوليدة ..

الحقيقة أنها قضت في الاتحاد السوفيتي عشرين عامًا ، وكانت تجيد الروسية كأهلها ...

بالطبع هذا ألصق بها تهمة الشيوعية ، وأنها تحاول هدم المجتمع الأمريكي .. والحقيق أنها لم تخف انبهارها بالشيوعية وعندما زارت بوسطون عام 1922 ، فإنها لوحت بالعلم الأحمر على المسرح .

تزوجت كثيرًا ورزقت بأطفال كثيرين ، ماتوا جميعًا .

كان اللقاء الأهم في حياتها في موسكو عام 1921 ..

رأت ذلك المجنون لامع العينين . كان في الثامنة عشرة من عمره لكن السوفييت يعشقونه ..

وقعا في الحب في ذات اللحظة . مستحيل أن يعرف المرء إيزادورا ولا يحبها .. ومستحيل أن تعرف المرأة الشاعر الوسيم ولا تهيم به ..

كانت تلك هي الأعوام التي تلت ثورة 1917 ..

العلم الأحمر في كل مكان .. صور لينين ، وماركس .. بعد لم يكن

الخلاف قد دب بين تروتسكي وستالين .. في تلك الأعوام جاءت
إلى موسكو ، وهناك في حفل صاخب رأت الشاعر أبوهيمي الثائر

كان يقف وسط الحشد الجالس في الحفل .. الكل ينظرون له بعيون
مبهورة .. وقد أضيء المكان بالمشاعل كي يكتسب طابعًا وثنيًا غريبًا
كان يحمل كأسًا في يده ويرفعه ، وكان يدخن سيجارًا غليظًا
ويقول :

أيتها النجوم .. النجوم الدقيقة .. ما أبعدك وما أشد نقاءك ..!

ما الذي جعلك خلابة بهذا الشكل ؟

أيتها النجوم .. عميقة التفكير .. المتحفظة في ظهورك ..

ما القوة التي تجعلك مغرية كهذا ؟

أيتها النجوم .. النجوم الدقيقة .. أنت كثيفة صلبة ؛

ما الذي يمنحك كل هذه العظمة والمجد ؟

كيف لتلك الأجسام السماوية أن تمنح ..

هذا الظمأ والرغبة في المعرفة ؟

شهق الناس انبهارًا ، ومن مكان ما راح أحدهم يصاحب الموسيقى
بالبلالايكا . لا تعرف عبير كيف طوحت بحذاءيها .. ثم دخلت لتترك
الجالسين لترقص حول الشاعر رقصة مرتجلة ساحرة .. كانت تعرف
كيف ترقص كتلك الحوريات المرسومات على جدران الإغريق
وأثينهم .

عندما انتهت القصيدة والموسيقا والرقص، كان الشاعر العصبى نارى الطبع يمسك بيدها ويطبع عليها آلاف القبل، فى جو مسرحى يليق بشخصيته

- « ستتزوجينني يا إيزادورا ! »

بحثت عن تعبير روسى يشبه (من همه أخد واحدة قد أمه) فلم تجد، لذا قالت :

- « أنا أكبر منك بدهور .. ثمانية عشر عامًا فى الواقع »

- « القلوب لا تشيخ .. وأنا أريد قلبك أيتها الساحرة »

هكذا تزوجا .. لم تجد وقتًا لتفكر فهى مثله نارية الطبع .

ومعها ذهب لأوروبا وأمريكا فى جولاتها الفنية .

من جديد تتكرر القاعدة : لا يمكن حبس هذه الذئاب المتفردة طويلاً .. لابد من أن تعضك ثم تهرب وسط البرارى . كانت عصبية وكان عصبيًا وقد تصاعدت مشاجراتهما إلى درجة غير مسبوقة ، حتى صارت خبرًا ثابتًا فى الصحف ..

انتظر الصحفيون فى شغف نبأ طلاق شاعرنا من إيزادورا. ولعل هذا هو السبب الوحيد الذى جعلهما يؤخران الطلاق حتى 1932 ..

- « لم يعد من مفر .. »

- « نحن ذئبان وحيدان . محاولة جمعنا فى قفص واحد مستحيلة »

هكذا تم الطلاق ... لكن ظلت جمرة الحب تحت التراب متقدة لفترة

طويلة .. لا أحد يطلق شريك حياته إلا وهو يحمل له قدرًا من الألفة والحب لا يعترف به أبدًا ، لكنه موجود ..

* * *

فى البداية تحمس شاعرنا للثورة فى روسيا .. ثم بدأ يشعر بأنها حاصرت الفردية ، وأنها فرضت جوًا شموليًا بحيث لم يعد بوسعه الكتابة عن شىء سوى المزارع الجماعية والحزب الشيوعى ، لذا كتب منذ أعوام قصيدة تقول : « البلشفيك قد خدعونى ! »

سوف تسمع عن الشاعر الروسى ماياكوفسكى والشاعرة أخماتوفا وغيرهما من المغضوب عليهما فى الدولة بسبب ميولهما الفردية .. وهذه هى شلته ، ويقال إن روسيا أهدت العالم هدية عجيبة هى الشعراء الذين ينتحرون !! معظم الشعراء السوفييت بعد الثورة ينتحرون .. هذه قاعدة ..

هكذا فى نهاية ديسمبر 1925 وجدوا جثة الشاعر منتحرًا بالشنق فى غرفة فندق بسانت بطرسبورج . جوار الفراش وجدوا آخر قصيدة له .. لم يجد حبرًا يكتبها به فجرح إصبعه وكتبها بالدم :

وداعًا يا صديقى العزيز وداعًا

سوف تبقى فى قلبى للأبد

لربما تنبأ البعض بأننا سنلتقى من جديد يومًا ما

لا داعى للكلمات ولا المصافحات

لا حواجب حزينة غارقة في العتاب

الموت في هذه الحياة ليس شيئا جديدًا

والحياة ليست أكثر جدّة بالطبع ...

كان الشعراء في الواقع كان يعاني اكتئابا شديدا تفاقم قبل الانتحار بأسبوع . بالطبع خرجت نظريات كثيرة تقول إن الكي جي بي قتلوه بسبب ميوله المتمردة .. هذه عادة دائمة كلما انتحر أحد المشاهير ، وقد صدرت كتب كاملة عن (مقتل) الشاعر ، لكن تظل الحقيقة هي أنه كان مريض اكتئاب وكان يفرط في الشراب ، وقد تشاجر مرارًا مع رجال الشرطة وضربهم وضربوه ... هذا مزاج انتحاري بامتياز .

بعد موته انتشر وباء انتحار لدى الفتيات اللاتي كن يهمن به حبًا .. هذا هو ما يسمونه copycat suicide .. عندما يصير الانتحار موضة ..

عرفت عبير الخير أثناء جولتها في أوروبا .. لكنها لم تكن من طراز المنتحرات طبعًا . لا تملك هذا القدر من الرومانسية المريضة لحسن الحظ . فقط بكت كثيرًا وعلقت صورته ...

مرت ثلاث سنين قاسية ....

من دونه . يجب أن تتعلم ذلك .. خرجت إلى شرفة الفندق الفاخر الذي تقيم فيه في نيس بفرنسا ..

تذكرت من جديد هذا الحبيب الشاب الذي دخل حياتها كعاصفة ، ورحل بكثير من الصخب .

ومن بين السحب المتكاثفة فى السماء ، كان بوسعها أن تسمع
يقول بطريقته العصبية :

يتدلى النهار المنهك .. وببطء يخبو
لقد هدأت الأمواج الصاخبة الآن ..
غربت الشمس وأبحر القمر
فوق العالم صامتًا شاردًا ..
يصغى الوادى لثرثرة النهر الآمن
يصغى النهر ويتهامس مع الضفتين
ومن فوقنا يتردد صخب المطر المنهمر السعيد ..

سالت دمعة من عينيها .

لقد رحل ... والأسوأ أنها لا تعرف اسمه. هذه طريقة ظالمة لا يمكن للصحف أن تعلن خبر وفاة الشاعر (ر) إلا بأن تكتب (وفاة الشاعر) أى يجب أن تذكر اسمه ، لكننا هنا نلعب لعبة قاسية .. تخرج الصحف وعلى صفحاتها الأولى (توفى الشاعر العصبى منتحرًا) ويأتى من يخبرها : (شاعرك قد مات) ..

هكذا من المستحيل فعلاً أن تعرف من هو ..

كان سائق العربة الفاخرة ينتظرها .. فقد طلبت منه أن يأخذها إلى مطعم قريب ..

ارتدت معطفًا ووشاحًا وربطت (إيشارب) حول عنقها ، وفتح لها الباب فدخلت فى ضجر ، وقد وضعت على عينيها نظارة سوداء لتبدو كأنها كانت تبكى ..

دار محرك السيارة فى وضع الوقوف، هنا شعرت بأن هناك شيئًا مألوفًا فى السائق .. دققت النظر فأدركت أنه هو المرشد وقد ارتدى بيريه السائق وثيابه ..

هتفت فى دهشة :

- « ما هذه الألعاب ؟ »

قال وهو يمسك بالمقود :

- « هل خمنت اسم الشاعر ؟ »

- « بالطبع لا .. شاعر سوفيتى نحيل عصبى وانتحر .. لابد أن هناك خمسين شخصًا صالحًا .. »

قال وهو ينظر فى المرآة:

- « لا تخافى .. سيتم الانتقال لعبقر قبل أن تتألمى ..! »

- « عم تتكلم ؟ »

انطلق بالسيارة وهو يقول بلا مبالاة :

- « فى عالم الواقع ماتت إيزادورا عام 1927 لأن الإيشارب الذى تلبسه تدلى من نافذة السيارة واشتبك بالعجلة الخلفية للسيارة ..!

لاحظي أن الإيشارب يتدلى من النافذة الآن ! ولاحظي أننا في سبتمبر عام 1927 ! »

كادت الآن قد فهمت ما يحدث .. شيء يلتف حول عنقها .. شيء ل
قوة السيوف .. لا تستطيع التنفس ...

إنها ستـ..... تختنق .....

بل سيتحطم عنقها أولاً !!!

> هل تمكنت من معرفة الشاعر ؟ ابحث عنه وسط قائمة الشعراء التي قابلتها في البداية . خذ رقمه . ظلل المربع الذي يحمل هذا الرقم في آخر الكتيب .



الشاعر الرابع

(عرس الدم)

- 1 -

تحسست عنقها وحمدت الله على أنه لم يتحطم. لن تنس أبدًا أنها لو ماتت فى فانتازيا فعلى الأرجح سيتوقف قلبها فى عالم الواقع. لقد أنقذها المرشد قبل مفاجأة التفاف الإيشارب القذرة .. سحقًا إيزادورا .. هذه الميتات الغريبة .....

كانت المواجهة من جديد فى وادى عبقر. أدركت عبير أن الخروج من هنا سيكون صعبًا ، لأنها مهما خمنت فلابد أن ترتكب أخطاء. دعك من أنها متشككة تمامًا فى الشاعر الثانى وغير متأكدة من الأول. ومرتبكة بصدد الثالث.

هكذا وقفت فى الظلام تراقب ثورًا أسود يركض والدخان يتصاعد من منخريه .. لا مشكلة .. لقد اعتادت أشكال الجان العجيبة فى وادى عبقر. ثم إنها رأت الشاعر يدنو فى الظلام من الجنى .. يتلقى منه الشعر .. استطاعت أن تميز ملامح الشاعر. أسمر حزين كحيل العينين. كما أمكنها أن تسمع مقاطع الشعر ... يسهل عندما تسمع (كى ما كويرو دبلا ستراذا) أو أى شىء من هذا القبيل ، أن تدرك أننا نتكلم الأسبانية هنا ..

ثم انفتحت الثغرة وعبرتها معه ..

* * *

من المفيض أن تبدأ القصة وسط رجال يقومون بحفر موضع قبر..

وقبر حرب بمكان قفر، وليس قرب قبر حرب قبر.. تذكرت عبير هذه الجملة التي يستخدمها العرب كمعثرات لفظية، وقالوا إن الجن في وادي عبقر كتبوها.. هذا قبر حرب فعلاً..

كان هذا العام 2009 حيث وقف رجال جامعة غرناطة يزيلون طبقات التراب عن القبر.. كانت هناك إشاعات من بعض الفلاحين عن أنهم شاركوا في حفر هذا القبر.. يقال إنه دفن على الطريق المؤدي إلى الفاكار..

الدكتاتور العسكري جنرال فرانكو قد قضى فترة حكمه حتى عام 1975 يتسلى بدفن المعارضين.. اختفى المئات في تلك الحقبة، ومن الواضح أن شاعرنا الرقيق كان من هؤلاء..

ظهرت رفات.. وقد عرض أقارب الشاعر أن يقدموا الحمض النووي من أجل إجراء التحليل.. يجب أن تثبت أن هذا هو جدنا الشاعر العظيم.. لكن تبين أنها بفحص الأنسجة لا تخص الشاعر.. الفلاحون أخطأوا القبر..

كانت جالا واقفة هناك..

جالا هي عبير طبعًا لو لم تكن استنتجت هذا، وكانت مسنة جدًا..

يعرف العالم كله ملامح جالا؛ لأن زوجها الفنان السريالي سلفادور

دالى رسمها كثيرا ، بل إن العالم كله رأى جسدها العارى فى اللوحات مرارا . حقيقة أزعجت (عبير) وحاولت تجاهلها ..

كانت تقف هناك تراقب عمليات الحفر وتتساءل :

أين أنت ؟

لقد عاش حياة صاخبة لكنه كان ثائرًا متمردا يصعب ترويضه . هذا الطراز من الناس لا يمكن إسكاته إلا بقتله ، وهى تفهم جيدا الأسباب التى دفعتهم لإعدامه ..

تعود لتلك الأيام السعيدة ، عندما كانت هى زوجة دالى ، وكان الشاعر صديق الأسرة .. كانت شلة من الثوريين المجانين ذوى الميول الماركسية ، ومنهم بابلو نيرودا الذى صار رمزا ثوريا بعد انقلاب شيلى .. وسلفادور دالى بشاربيه الغريبين وعينيه المجنونتين ، ورسومه ونظرياته الغريبة :

- « كل الوجوه عبارة عن قرون خرتيت .. يمكنك أن تشكل أى وجه فى العالم بقرون خرتيت ! »

قال له الشاعر محاولاً الفهم :

- « هذه نظرية غريبة بحق .. وهل لديك قرون خرتيت فى البيت ؟ »

أشعل سلفادور دالى الغليون الغريب الخاص به ، وقال :

- « طبعا .. بالفعل أنا لا أفهم كيف يعيش الناس من دون قرون

حريتك في البيت !"

بالإضافة لهذا كان هناك المخرج السريالي المجنون لوي بونويل ..

كل شيء سريالي عجيب ..

كان عليها أن تتحمل هذا الجو الغريب ، وسهرات المثقفين وتدخين المخدرات بلا توقف .. لكنها لم تنكر أن ذلك الشاعر الأسمر كان عبقريًا .. ومن الغريب أنه كان رسامًا موهوبًا وإن لم يعترف له زوجها بهذا قط ..

يقول والدخان يتصاعد من شفتيه ، بينما دندنة على أوتار الجيتار تتابع كلماته(*) :

في الخامسة عند المساء

حمل طفل الغطاء الأبيض

لفة جير كانت جاهزة

في الخامسة عند المساء

الباقي موت ولا شيء غير الموت ..

لا أريد أن أراه

القمر في تمامه

وأنا لا أريد أن أرى دم اغناثيو مسفوحًا فوق الحلبة ..

(*) الأشعار هنا ترجمة خليفة محمد التليسي .. لن نستطيع ذكر اسم الديوان !!

ما أعظمه من مصارع في الحلبة

وما أرقه مع السنابل

ما أنطقه مع الندى

هيهات

إنه نائم نومًا أبديًا

إن الطحالب والأعشاب تفتح زهرة جمجمته

بأصابع واثقة

ودمه يتدفق ..

كان من حسن حظها أن تسمع المولد الأول لقصيدته الشهيرة مرثية مصارع الثيران .. لقد كان إسبانيًا حتى النخاع .. إسبانيًا في كل شيء .. ومصارعة الثيران جزء من تكوين كل إسباني .

كان يؤمن بأن الشعر كائن حي ، ويجب على الشاعر أن يطوره بنفسه لينقل جزءًا من روحه للناس . لقد اعتبره كثيرون شاعرًا غجريًا ، لكن هذا كان جزءًا ضئيلاً من موهبته

ومسرحياته .. لقد أحببت مسرحيتي (رقية الفراشة المشئومة) و(عرس الدم) جدًا ..

على أن الرحلة المفصلية في حياته كانت رحلته إلى نيويورك، وبعدها كتب (شاعر في نيويورك) التي قال فيها :

المتكر انظروا المتكر

قدم من أفريقيا إلى نيويورك

لقد رحلت أشجار الفلفل

وأزرار الفوسفور الصغيرة

ورحلت الجمال بلحمها الممزق

وذبان النور التي يرفعها البجع فوق منقاره..

إنه وقت الأشياء الجافة

السيدة البدينة تتقدم

منتزعة الجذور مبللة جلود الطبول

السيدة البدينة التي تبقر بطن أخطبوطات البحر الميتة

السيدة البدينة عدو القمر

تجرى في الطرقات والمباني المهجورة..

شعر غامض طبعًا ، فلا تنس أن مجموعة الأصدقاء تعشق السريالية .. مؤلف هذه السطور لا يفهم قصائده ، لكن هذا لا ينكر أنه شاعر مهم جدًا ، وكما هي العادة يبرهن الطغاة والدكتاتورات على أنهم يتذوقون الأدب والشعر أكثر من رجل الشارع . على الأقل يشعرون بالكلمات الخطرة ...

- 2 -

ذلك الشارع

بلا ناس

ذلك الشارع ..

ذلك الجدجد(*)

بلا جحر

ذلك الجدجد

★ ★ ★

السلام عليك أيتها الورود

أيتها النجوم المهيبة

ورود .. ورود

يا فرحة اللانهاية النابضة بالحياة

ثغور .. قلوب غامضة معطرة

نحيب .. قبلات .. حيات تقاح القمر

لوتس عذب للأرواح المرهقة ..

★ ★ ★

(*) الجدجد هو صرصور الليل طبعًا ... لم أتوقع أنك لا تعرف هذا !

فى العام 1936 وقع انقلاب الجنرال فرانكو ليقضى على الجمهورية الثانية .. هذه تفاصيل يعرفها السياسيون ، ولا وقت لها هنا ..

هذه أعوام ثرية جدًا ، ومليئة بالصراع ، وقد حشدت مثقفى العالم معها . يكفى أن نقول إن الكاتب الأمريكى العظيم همنجواى ذهب ليتطوع ويشارك فى الحرب الأهلية الإسبانية ..

كان الشاعر قد ذهب إلى غرناطة لزيارة أهله ..

عرفت عبير هذا من زوجها غريب الأطوار دالى ..

كان الشاعر خائفًا خصوصًا بعد ما تم اعتقال صهره .

قرر أن يبيت ليلته عند صديقه روزاليس ثم يرحل فى الصباح . وقد ارتبك صديقه لدى رؤيته:

- « إن الجميع يعرفون أنك هنا يا .... »

ارتبك الشاعر .. كان يعتقد أن زيارته لأهله ستمر بسلاسة دون أن ينتشر الخبر . كانت البلاد تغلى بالاضطراب وقد تكدست الجثث فى الشوارع .. الدم فى كل صوب ...

هذا مناخ لا يناسب طبيعة الشاعر الرقيق أبدًا ...

فى الثالثة بعد منتصف الليل جاءوا ..

كانوا أربعة من رجال الميلشيات المسلحين ، جاءوا يطلبون الشاعر بالاسم .. لماذا هو بالذات ؟ كما قلنا لأن الطغاة يتذوقون الأدب خيرًا من سواهم . قد لايفهمون ما يقول الأديب - أى أديب - لكنهم يكرهونه

يطون ..

لم يقاوم الشاعر .. تقدم ليمشي معهم ..

هتف روزاليس وهو يقف بينهم وبين صديقه :

ـ « لكنه بريء ! »

قال أحد الرجال الكلمة التي يقولها زوار الفجر في كل مرة منذ فجر التاريخ :

ـ « إن هو إلا تحقيق لساعة أو ساعتين ثم يعود لداره »

★ ★ ★

هناك في ضوء الفجر وقف الشاعر الأسمر حزين العينين يشهق، ويداه مقيدتان خلف ظهره .. رفض وضع العصابة على عينيه ليكون نور الفجر آخر ما يرى .. بدا كأنه خرج لتوه من إحدى لوحات جويا المخيفة التي تصور كتيبة الإعدام . نظر للتلال البعيدة حول غرناطة وتنهد ..

ثم إنه أنشد آخر أبيات له :

عرفت أنني قد قُتلت

بحثوا عن جثتي في كل المدافن

سرقوا ثلاث جثث وفتحوا كل الخزائن

لكنهم لم يجدوا جثتي قط »

انت تعرف أنهم حاولوا أن يجدوا جسده فى بداية الفصل لكنهم فشلوا. هذه نبوءة دقيقة ..

سمعت عبير أمر الإعدام ثم سمعت دوى الطلقات الرهيب. فلم تجرؤ على النظر .. لسبب ما يموت الشعراء ميتات عنيفة فى عالمنا .. ينتحرون أو يعدمون .. حتى من ماتوا فى حوادث ، تظل وفاتهم غامضة تلقى أسئلة كثيرة مثل (نجيب سرور) فى مصر .. لعل السبب هو أنهم يتوهجون بقوة وينطفئون بسرعة ..

إنهم يشعلون العالم من حولهم فيحرقهم ويحرقونه ..

لا تعرف التفسير الدقيق .. لكن لديها مشكلتها الخاصة على كل حال ، فلا وقت لهذه الأسئلة الفلسفية ..

الشاعر الخامس

(الفيلســوف)

- 1 -

الأمر يزداد تعقيدًا .. فهي لم تستطع أن تصل لجواب يقيني .. كل الأجوبة ممكنة وكلها خطأ كذلك ..

هي الآن في وادي عبقر .. لا شك في أنها رأت حشدًا لا بأس به من الوفيات في هذه القصة .. من يدري من يكون الشاعر التالي ؟ هل يكون سهلًا ؟ .. هل يموت ميتة عنيفة ؟

أول الأسماء في القائمة هو (الحارث اليشكري) .. ترى من هو ؟ يمكن أن يكون أي شخص فهي لا تعرف عنه حرفًا .. على الأقل هي موقنة أنه لم يمت على يد الميليشيا خارج غرناطة بعد انقلاب فرانكو .. وماذا عن سيلي برودوم ؟ من هو ؟

إن الأمور صعبة بحق ..

هنا سمعت من خلفها صوت سعال .. ثم من يقول في كياسة :

-- « الحارث اليشكري من أصحاب المعلقات »

-- « معلقات ؟ »

كان هذا هو المرشد طبعًا وقد وقف خلفها يراقب المشهد .. قال لها بطريقته المألوفة :

-- أي أنها قصائد عظيمة لدرجة أنهم علقوها على أستار الكعبة .. إنهم عشرة شعراء عباقرة .. لا شك أنك تعرفين منهم امرأ القيس

وعنترة بن شداد وزهير بن أبى سلمى .. لقد شرحت لكم هذا ألف مرة عندما كنت مدرس اللغة العربية فى فصلك لكنكم أبقار غبية !»

ـ « والستة الباقون ؟ »

راح يعد على أنامله:

ـ « طرفة بن العبد .. النابغة الذبيانى .. لبيد بن ربيعة .. عبيد بن الأبرص .. عمرو بن كلثوم .. الأعشى ميمون .. »

ثم راح يسترجع:

ـ « كنت أجعلكم تحفظون أسماءهم بهذه القصة : أن (يتعشى) (المرء) ويسمع (أم كلثوم) فيشعر بشعور (طريف) وأنه (نابغة) . يمشى وسط (الزهر) فيفاجأ (ببرص) و(ذباب أزرق) يحيط به و(لا مبيد) ! .. سوف تجدين كل أسماء شعراء المعلقات فى هذه القصة ! »

ـ « نسيت عنترة ولبيد ! »

ـ « يا سلام !.. عنترة معناها الذباب الأزرق .. لا مبيد هى لبيد .. لابد من بعض الخيال ! »

صمتت وهى تحاول استعادة هذه القصة .. لعلها تفيدها فى قصة أخرى . لربما رأت شاعرًا يعلق قصيدة على أستار الكعبة . لربما فى الظلام ترى ذلك الشاعر يمشى وسط كثبان الصحراء ، ثم يتوقف ويلوح بيده فى السماء . هناك ظليم يأتى من بعيد جريًا .. أرجو

أن تكون عارفًا أن الظليم ذكر النعامة وهو أسرع الكائنات جريًا بالنسبة للعرب .. لذا قالوا (عدا عدو الظليم) ، بينما الغربيون يرون أن (الشيتا) هو الأسرع ..

يتوقف الظليم أمام الشاعر ، ويقرب رأسه من أذنه .. لا تحتاج لخيال كي تدرك أن هذا جني آخر . لهب أحمر يتصاعد من عيني الظليم وهو يملي الكلام على الشاعر ، والآخر يردد الكلمات . لم يبد لها الشاعر عربيًا يلبس ثيابًا غربية وعباءة تتدلى على الرمال وقبعة ذات ريشة .. لابد أن الغربيين يعانون كثيرًا في هذه الصحراء .

ثم تم الانتقال ....

* * *

لم تر ما يوحي بمجتمع غربي .. لم تكن هناك كنائس ولا قلاع .. هناك سوق شرقية ومسجد .. هذا بلد عربي لا شك في ذلك ، يذكرها كثيرًا بأجواء البصرة عندما كانت مع سيبويه .. هناك مطر وبعض الثلج ، والطقس بارد لكن لا شك في أن هذا بلد عربي . ربما هي في شمال العراق أو لبنان أو سوريا ..

كانت تعرف أن هذا البيت الذي تدخله هو بيت الشاعر . أزاحت الباب ودخلت ، ولاحظت أن الظلام دامس بالداخل .. لكن هناك طاقة نور صغيرة في الجدار ، ترى فيها شابًا يمسك ريشة وقرطاسًا ويجلس على لوح على الأرض ..

قالت له في أدب :

ـ « هل أنت الشاعر ؟ »

قال وهو ينهض :

ـ « أنا السكرتير .. يطلق على الشعر .. اسمى على بن عبدالله .. هل لديك موعد ؟ »

فكرت قليلاً ثم قالت:

ـ « أعرف .. المفترض أن أقابله بأى شكل .. »

ـ « هو لا يقابل أحدا ولا يخرج .. بل إنه يأكل فى غرفته .. طعامه نباتى تماما .. لا لحوم ولا بيض أو لبن .. لا أعتقد أنه سيسمح لك باللقاء .. »

ـ « لقد جئت من مسافة بعيدة فعلا .. جئت من وادى عبقر قاصدة معرة النعمان .. لابد أن تسمح لى بكوب شاى على الأقل .. »

بدا موقفه يلين ، ففرش لها رداء على الأرض لتجلس ، ثم صب لها بعض الماء البارد المعطر بماء الورد من دورق جواره ، وقال :

ـ « إنه مشغول جدًا .. هو غارق فى اللزوميات وليس لديه وقت كاف كى .... »

كانت تذكر شيئًا عن هذه اللزوميات .. لكن ما هى بالضبط ؟ لزوم ما لا يلزم ..

بدا الجهل على وجهها ، فقال السكرتير فى نفاد صبر :

ـ « فى علم العروض كل بيت شعر ينتهى بحرف متشابه هو

ما يطلقون عليه (الروى) .. يطلقون عليه القافية كذلك .. الشاعر العروض ملتزم بتكرار هذا الحرف .. لوازم القافية خمسة أحرف هى الروى والردف والتأسيس والوصل والخروج ، وست حركات هى الرس والإشباع والنفاذ والمجرى والتوجيه والحذو .. »

سدت أذنيها كى لا تسمع أكثر وصاحت:

« من قال هذا الكلام ؟ هل هو أول شعر عن ميكانيكا الكم فى التاريخ العربى ؟ »

اهتز صدره بضحكة مكتومة وقال :

« هو شرح هذه الأمور فى بداية ديوان اللزوميات ، وأعترف أن هذا الكلام صعب على أنا نفسى .. ما أردت قوله هنا أن الشاعر قرر أن يلتزم بحرفين تصعيبًا للأمور على نفسه .. ثم قرر أن يلتزم بثلاثة أحرف .. مثلاً يقول شاعر آخر اسمه الأخطل الصغير فى قصيدة عادية :

جفله علم الغزل ★ ومن العلم ما قتل

وحرقنا نفوسنا ★ فى جحيم من القبل

أين حرف الروى يا آنسة ؟ »

فى كبرياء صححت له :

« (مدام) لو سمحت .. حرف الروى هو اللام الساكنة »

صفق بيده في مرح وقال :

- « عظيم .. الآن تعالى لتسمعي شعر شاعرنا :

ما يشأ ربك يفعل قادرًا ★ جلّ عن كل مقالٍ واعتراض

قد تجمعنا على غير هدى ★ وتفرقنا على غير تراض

لقد قرر الشاعر أن يلتزم آخر ثلاثة أحرف في كل بيت (راض) .. إنه يصعب الحياة على نفسه ليظهر براعته »

لم يبد هذا محببًا لعبير ، فهي تعلمت من قراءتها لنازك الملائكة أن القافية تكبل الشاعر تكبيلاً ، وقد ترغمه على قول ما لا يريد قوله ..

وكأنما سمع السكرتير كلامها ، قال على الفور:

- « لابد من أن يكون الشاعر عظيم الموهبة ، وإلا فالتكلف سيكون ثقيلاً . لا فن بدون قيد .. وبراعة الشاعر في التحرك برغم القيد هي ما يجعله عظيمًا »

هنا جاء صوت ينادي من الداخل :

- « يا علي ! .. مع من تتكلم ؟ »

ارتبك السكرتير وطلب منها الرحيل ، لكن الشاعر ناداه من الداخل :

- « سمعت كل ما يقال .. دعها تدخل ! »

- 2 -

هناك كان جالسًا فى الظلام متربعًا فى الركن يهتز مفكرًا .. بالطبع كان كفيفًا .. كل شعراء اليوم مكفوفون كما هو واضح ، والسبب الجدرى الذى أتلف عينه فى سن السابعة ، ومن الواضح أنه سينتحر أو يقتل إذا سارت الأمور كما اعتادت . لكنها لا تنكر أنه كان نظيفًا عطر الرائحة . مريحًا للتنفس على خلاف ذلك الشاعر السابق الذى مات جدًا ..

قال لها بصوت متعب :

- « هل تشعرين بالبرد ؟ »

- « قليلًا »

أنشد قائلًا :

« لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته ★ فقير مُعرّى أو أمير مدوّج »

بدت لها كلمة (مدوج) ثقيلة غريبة ، فاقترحت عليه أن تكون الكلمة (أمير متوج) فهى مفهومة أكثر .. قال فى عصبية :

- « هذا هو التفكير السطحى الباحث عن جرس الكلمات .. مدوج معناها مدثر بالثياب .. وهذا يقابل العرى بدقة .. أى أحمق سيختار لفظة (متوج) بينما لابد للشاعر من انتقاء الكلمات بحرص »

قالت له فى حيرة :

ـ « بهذا المنطق أنت لا تحب إلا شعرك .. »

ـ « هناك شاعر واحد أفضل منى ، وقد قضيت حياتى فى دراسة المتنبى ! إنه مذهل »

كان يتكلم فى عصبية فتجاهلت عصبيته .. وجلست جواره على البساط وسألته :

ـ « يقولون إنك متشائم جداً .. بل أنت التشاؤم يمشى على قدمين »

ـ « لهذا اعتزلت العالم .. أنا مؤمن بأننى مشئوم الحظ وأن الدنيا تختار لى الأسوأ ، ولم أعد أتحمل البشر .. »

ثم أنشد :

ولو أن الرياح تهب غربا ★ وقلت لها : (هلا) .. هبت شمالا

وأقسم لو غضبت على ثبير ★ لأزمــع مــن محلتــه ارتحــالا

وهى مقولة تشبه مقولتنا العامية (قليل البخت يلقى العضم فى الكرشة) . وأدركت عبير أن (آلا) هذه من اللزوميات غالبا .. ثبير جبل شهير بين مكة والمدينة ..

وهو الذى رفض الزواج والإنجاب عندما قال :

هــذا جنــاه أبى علــىّ ★ ومــا جنيت علــى أحــد

ثلاثة أيام هى الدهر كله ★ وما هن غير الأمس واليوم والغد

هذا شاعر مهم جدًا، ولعله الشاعر الوحيد الفيلسوف فى العربية كما كان طه حسين يصفه . لابد أن تلقاه عبير يومًا فى قصة مستقلة .
كانت تفكر فى هذا وهى تمرر عينيها فى أرجاء الحجرة الضيقة ، وهنا لاحظت شيئًا غريبًا .. هناك مكبر صوت صغير يتصل بسلك .. جهاز تنصت ! .. السلك يتدلى على الأرض خارجًا من النافذة الضيقة التى لا تسمح بدخول نور . جهاز تنصت فى هذا العصر القديم شىء مضحك ، لكنه من ألعاب فانتازيا المعروفة .

لم تبعد عينيها عن السلك وقالت :

- « هل هناك من يتجسس عليك ؟ »

- « لماذا تسألين ؟ كثيرون يفعلون . لا أحد يحترم حقوق الملكية الفكرية هنا .. هناك من يحاول سرقة كتابى الجديد .. رسالة الغفران ... »

تذكرت بعض الشىء .. تذكر شيئًا كهذا فى المدرسة . لكن ماذا ؟

قال الشاعر الكفيف وهو يهز رأسه :

- « هذا عمل نثرى جبار ، ليس شعرًا .. تخيلت أن الأديب ابن القارح يخوض رحلة خيالية تنقله إلى العالم الآخر .. يرى الجنة ومن فيها ثم يذهب إلى جهنم ليرى من فيها .. فى الجنة يقابل معظم أصحاب المعلقات الذين تخيلت أن أشعارهم شفعت لهم .. ثم ينتقل للنار ليقابل عنترة وبشار بن برد وطرفة بن العبد .. إنها محاورات فلسفية شديدة التعقيد تعكس رأيى فى هؤلاء الشعراء ، وفلسفتى كلها .. »

ـ « ومن يتجسس عليك ؟ »

ـ « لا أدرى ... »

نهضت عبير إلى السلك فتتبعته .. ثم إنها قررت أن تلقى نظرة من الخارج .. رأت السلك يخرج من النافذة ثم يتلوى عبر الطرقات الموحلة حتى شجرة قريبة . اقتربت من الشجرة فوثب رجل ذو عباءة حمراء من أعلى ، كان يضع سماعة فى أذنه .. فلما رآها هتف بلغة لاتينية طبعاً استطاعت فهمها فى فانتازيا ، لكنها كانت لاتينية عجيبة مختلفة :

ـ « وجدت نفسى فى غابة مظلمة ! ... إنما الجشع والكبرياء والحسد هى الألسنة التى يعرفها الناس ويطلبونها .. برج بابل من القنوط »

استوقفته وشدته من عباءته :

ـ « أنت يا أخانا ! .. لماذا تتجسس على هذا الشاعر العظيم ؟ »

لم يهتم بكلامها وواصل كلامه :

ـ « يأيها الجشع الأعمى الجاهل .. الذى يعذبنا فى حياتنا القصيرة الفانية ، ثم يتزلق بنا طيلة الأبدية ... »

ـ « أنت مخبول ! »

هنا تملص من قبضتها وانطلق يركض هارباً .. لم تستطع ملاحقته عبر الأوحال . سوف تنزلق وتهشم عنقها . أطلقت سبة باللاتينية ، ثم عادت للبيت ونظر لها السكرتير فى دهشة فقالت كأنها تبصق :

-« على .. أنت غير قادر على حراسة حاملة طائرات .. سوف يسرقونها منك »

ثم عادت إلى الشاعر الكفيف الجالس في غرفته. وأخبرته بأن هناك رجلا غريبًا كان يتنصت على كتابه الذي يمليه على السكرتير. يعتمد على السماع. لم يبد الشاعر مهتمًا .. هذا يحدث كثيرًا على كل حال.

قبل أن ترحل ابتلعت ريقها وسألته في كياسة:

-« هل أنت ملحد ؟ لقد تكلموا عنك كثيرًا .. لديك أبيات مريبة جدًا »

-« مثل ؟ »

قالت في حذر:

-« لا أجرؤ على ذكر كل ما قلت لكن أكتفي بالبيت:

اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا ★ دين ..وآخر دين بلا عقل

تجهم وجهه ثم تغير أسلوبه الودود وأشار بيده للباب:

-« أرجو أن تنصرفي »

لم تعتد عبير أن تتلقى أمر الطرد مرتين ، لذا غادرت الغرفة مسرعة ، وفي الخارج كان السكرتير يفتش البيت بحثًا عن أجهزة تنصت أخرى. لما رأته سألته:

-« سألته عن تدينه فطردني »

قال السكرتير:

- « هذا موضوع شخصي بحت .. لكن من الواضح تمامًا أنه يؤمن بالله وبوجود خالق للكون ، لكنه ينكر الأديان ولا يؤمن بأنها سماوية هذه هي الربوبية وهي مذهب فلسفي معروف. على كل حال هو ينظر للحياة كلها بمنظار أسود .. يطلق على الدنيا كلها اسم (أم نفر) أي (النتنة) . ويقول :

ولم تفتأ الدنيا تغير خليلها ★ وتبد له من غمض جفونه سهها

تريه الدجى في هيئة النور خدعة ★ وتطعمه صابًا فيحسبه شهدا

بل إنه يخاطب الدنيا قائلًا :

خسستِ يا أمنا الدنيا .. فأف لنا ★ بنو الخسيسة أوباش أخساء »

شعرت عبير باكتئاب شديد ... إن هذا الرجل شبيه بالسم المركز الذي لو سقطت منه قطرة في المحيط لتسمم العالم. والأدهى أنها عرفت أنه كان معمرًا .. لقد توفي عن 86 عامًا بميتة طبيعية .. كاره الحياة قد عاش ما يقرب من القرن، بينما شعراء مفعمون بالحياة مثل أبي القاسم الشابي فتك بهم المرض في سن مبكرة جدًا . فسبحان الله ..

قال السكرتير محاولًا تصحيح الأمر:

- « هو على كل حال طالب الناس بالالتزام بالعبادات والطاعة فقال :

قال المنجم والطبيب كلاهما : لا تحشر الأجساد .. قلت : إليكما

صح قولكما ، فلست بخاسر ، أو صح قولي ، فالخسار عليكما »

قالت عبير :

« هذا منطق عجيب .. لا يمكن أن أتخلى عن الشهوات وأصلي وأصوم وأحج وأجاهد (لمجرد الاحتياط) . إما أن تؤمن أو تكفر ولا توجد حلول وسط . لا يمكنك أن تمارس طقوس الدين وفي ذهنك أنه قد يكون أو لا يكون .. »

على كل حال يمكن القول إنها خمنت اسم الشاعر .. لعله أسهل شعراء اليوم ..

وقفت في الخارج تحت الأمطار وأخرجت قلمًا تحاول به تدوين اسمه على كفها . هنا رأت المرشد قادمًا من نهاية الزقاق وسط الوحل . المطر يبلل شعره ويسيل على حاجبيه ... وهو يمشي ببطء .

قالت ضاحكة ببيتين من شعر العبقري :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد

لم يضحك .. رفع كفه ليمنعها من الكتابة ، فقالت :

-- إنه سهل جدًا هذه المرة .. لو مرت ابنتي الصغيرة بهذه القصة لعرفت اسمه ! »

قال المرشد بطريقته الباردة:

-- لهذا قررت فانتازيا تصعيب الأمر عليك كالعادة .. لا تريد اسم

الشاعر بل اسم الشاعر الآخر الذى سقط من فوق الشجرة ! الشاعر الذى كدت تقبضين عليه !! »

ركلت بركة الماء تحت قدمها فى غيظ وقالت:

ـ « تبا لك ! ... ألا تريد معرفة اسم الطبيب الذى عالجه من الجدرى فى طفولته ؟ »

ـ « للأسف لم يحفظ لنا التاريخ اسمه وإلا لفعلت » .

راحت تبرطم فى سرها وهى تمشى معه مبتعدة ..

الشاعر السادس

(قربان الأغانى)

- 1 -

في وادي عبقر رأته وهو يتلقى أسرار الشعر من الجن . كان يجثو على ركبتيه ويضم يديه على صدره ، بينما يقف أمامه عملاق مارد أحمر الرأس يخرج الشرر من منخريه . من آن لآخر يخرج لسان أسود مشقوق ليمسح رأس الشاعر ، ثم يواصل الجني تلاوة الشعر ..

ثم إن الشاعر الذي يلبس مئزرًا أبيض صاح صيحة عظمى ، ثم انساب عبر الفجوة .. وبالطبع وجدت أنها تنسحب وراءه ..

* * *

العام 1913 ..

هم يتكلمون بالسويدية ، أو بإنجليزية ذات لكنة سويدية

النساء يلبسن ثياب السهرة الأنيقة ، وقد ازدانت نحورهن ومعاصمهن بالمجوهرات ، بينما الرجال يلبسون الفراك أو تلك البدلات مشقوقة الذيل التي تذكرك بالصرصور . خدم وحشم .. ثريا وأبسطة تغوص فيها قدماك ..

على المسرح صورة بروفيل عملاقة لألفريد نوبل العالم السويدي الذي اكتشف الديناميت ، ثم ابتكر الجائزة ليكفر عن ذنوبه .

هي جالسة وسط النساء في كامل أناقتها .. تشعر بشعور عجيب من الفخر ، كأنها هي الفائزة بالجائزة ، وتراقبه بينما يتعالى التصفيق

المذهب .. يمضى الشاعر بتؤدة على الخشبة ، وينحنى فى تواضع جم وهو يتلقى الجائزة الذهبية من جلالة ملك السويد ..

كان موفقًا عندما ترجم ديوانه الأخير إلى الإنجليزية بعد ما تجاوز الخمسين .. الإنجليزية اللغة التى أوصلت كلماته للعالم أجمع .. سمعها الجميع وعرفوا أن الله خلق شاعرًا عبقريًا قل أن يوجد مثله فى عصرنا .. إنه يعكس جرعة مذهلة من الجمال الصوفى لم يشعر الغربيون بمثلها من قبل ! ..

يعود فى هدوء ليجلس جوارها بينما التصفيق يتعالى وقد بدا أنه لن يتوقف أبدًا .

سألته بصوت عال ، حوله الصخب إلى همس لا يسمع :

-« فيم تفكر ؟ »

ابتسم بوجهه المتعب المليء بالتجاعيد وقال :

-« أفكر فى البيت ! »

* * *

كانت هى (جيتا) ..

الفتاة الرقيقة ذات الغمازتين ، التى كانت تقبع وحدها فى غرفتها الرطبة .. تكتب ما يخطر لها فى وريقات صغيرة .. تداريها فى الحجرة ، ولا تعرف أنها آخر أوراق تكتبها ..

عما قريب سترحل ولن يبقى منها سوى هذه الأوراق ..

كانت عبير تدون خواطرها بخط دقيق على الأوراق ، وهى تعرف أنه عندما ترحل فسوف تجد أمها هذه الكلمات . لم تكن تعرف أن ما تكتبه هو الشعر .

هناك كان كلبها الصغير يأتى ليعبث محركًا ذيله ، فتقدم له لقيمة صغيرة ..

تستبقى باقى اللقيمة لأن الغراب أوسكار سوف يتوقف على النافذة بعد قليل .. سوف يطلق صوته القبيح مرتين ، فتقدم له اللقمة يتناولها فى منقاره .. ثم يحلق مبتعدًا ..

جيتا امتزجت بالكون كله .. الغراب جزء منها .. الكلب جزء منها .. الشروق جزء منها ، الغروب جزء منها .. إن الشمس صديقتها والقمر حبيبها ..

جيتا مصابة بالسرطان .. فى كل يوم تذبل أكثر ..

فيما بعد سوف تنشر أمها قصائدها عام 1983 ..

لكن جيتا الصغيرة لم تعرف قط أنهم سموها على اسم ديوان الشاعر الكبير .. (جيتنجالى) وهى كلمة تعنى (قربان الأغانى) جتنجالى مجموعة شعرية من 157 قصيدة نشرها عام 1910 ونال شهرة ساحقة فى الغرب .

تقول جيتا:

- « لقد سُميتُ جيتنجالى على اسم الكتاب الشهير ومن بعد

تسمية وأنا أدعو وأصلى .. آه .. فلتساعدنى يا إلهى لأكون جديرة بهذا الاسم »

كانت تحفظ ثوبا جميلا فى الخزانة لتلبسه فى عيد ميلادها السادس عشر .. لكنها توعكت صباح يوم العيد وانهارت ونقلت للمستشفى حيث لفظت أنفاسها الأخيرة ..

المفترض أن يحدث هذا فيلهم الشاعر بالقصيدة .. لكن العجيب أن الشاعر كتب القصيدة أولا ثم حدث هذا !!

يقول لها الشاعر صاحب نوبل إنه يشتهى أن يعود لوطنه ..

هناك فى سن الثمانين مال رأسه إلى جانب ونظر لها طويلا .. ثم ارتجفت شفتاه وهمس :

- « أنا سأرحل »

كان هذا هو العام 1941 .. وكانت هذه آخر كلماته ..

- 2 -

تذكر عبير أنه كان من أسرة عريقة ثرية .. تزوج وزوجته في سن العاشرة وهو يكبرها بعشرة أعوام .. هذه هي العادة هنا .. كان اسمها (مرينا) ..

رحلت الزوجة مع الأولاد في سن مبكرة فتركت جرحًا عميقًا في روحه، ولهذا ظل الموت موجودًا في كل قصائده ..

كم من مرة جاءت عبير لتزوره في القارب الذي يبحر به في النهر ببطء .. وهو يسميه سونار تاري .. سونار ليست أشعة السونار التي نعرفها ، ولكنها بمعنى (ذهبي) ومعنى الاسم هنا (القارب الذهبي) لأن الشمس تجعله ذهبيًا .. كل شيء في هذه البلاد فيه لفظة (سونار) ، سوف تصير قصيدة للشاعر هي السلام الوطني لبلاده يومًا ما (أمار سونار بنجلا) .. هناك يتربع على الأرضية يشرب عصير البرتقال ويكتب الشعر .. كان يكتب الشعر منذ كان في السابعة، ويرتحل إلى وادي عبقر بشكل منتظم ..

من حين لآخر ينزل من القارب ليزور القرى القريبة ويواسي الفلاحين ويطعم طعامهم، ويداعب أطفالهم وقد أورثه هذا رهافة ورقة .

قال لها أكثر من مرة :

.. يؤسيهم لا يصدق .. إن لم يحرك فيك الشعر فلن يحركه شيء

آخر »

وكانت تجلس هناك عند قدميه تسمع أشعاره ، بينما يمسك أحد

العازفين بالمندولين ليصنع خلفية ساحرة للقصائد .. كان يترنم بمقاطع

من ديوان البستانى وهو من أروع دواوينه :

اليوم لم يختم بعد . والسوق التى على شاطئ النهر ما تزال .

لقد خفت أن يكون يومى قد تبدد ، وآخر دراهمى قد ضاع .

ولكن ، لا ، لا يا أخى . إنى ما زلت أملك شيئا ، لأن حظى لم يسلبنى

كل شيء .

الآن انتهى البيع والشراء . لقد جمعت حصيلتى من الطرفين .

والآن حان وقت عودتى إلى البيت .

ولكن ، أيها الحارس . أفتطلب ضريبتك ؟

لا تخف يا أخى ، لأنى ما زلت أملك شيئا ، فإن حظى لم يسلبنى كل

شيء .

ولكن يا صاحب المعبر ، أفتريد أن تطلب أجرك ؟

أجل يا أخى ، إنى ما زلت أملك شيئا ، فإن حظى لم يسلبنى كل

شيء .

وفى ظلال الشجرة على جانب الطريق ترنح المتسول .

واأسفاه! إنه يحدق فى وجهى وفى عينيه رجاء وحياء !

إننى ـ فى ظنه ـ غنى بما ربحتُ فى يومى

أجل يا أخى ، إنى ما زلتُ أملك شيئًا ، فإن حظى لم يسلبنى كل

شىء .

لقد اشتدَّ ظلام الليل ، وأقفر الطريق ، وتألق الحباحب بين أوراق

الشجر .

من عساك تكون يا من تتبعنى فى خطوات متلصصة صامتة ؟

آه ، لقد عرفت ، إنك تريد أن تسرق منى كل أرباحى .

لن أخيب ظنك !

لأنى مازلتُ أملك شيئًا ، فإن حظى لم يسلبنى كل شىء

وصلتُ المنزل عند منتصف الليل بيدين فارغتين .

وأنت لدى الباب تنتظرين فى يقظةٍ وصمت ، وفى عينيك شوق

وكعصفورةٍ وجلةٍ طرتِ إلى صدرى ، يدفعك حبٌ توّاق

آه يا إلهى . إن شيئًا كثيرًا لم يزل باقيًا معى . فإن حظى لم يخدعنى

ويسلبنى كل شىء !

ترتجف عبير من الروعة . تنظر لوجهه المفعم بالتسامح والحب

فهو قادر على أن يسامح حتى اللص الذى يسلبه ماله .. يسألها بصوت

متهدج :

- هل تروق لك ؟ »

- جداً »

يشرب رشفة من عصير البرتقال ، ثم يقول لها إنه سيترنم بقصيدة المصباح :

- لم انطفأ المصباح ؟

لقد أحطته بمعطفى ، ليكون بمنجى من الريح ، ولهذا فقد انطفأ المصباح

لم ذوت الزهرة ؟ - لقد شددتها إلى قلبى ، فى شغف قلق ، ولهذا فقد ذوت الزهرة .

لم نضب النهر ؟

لقد وضعت سداً فى مجراه لأفيد منه وحدى ، ولهذا فقد نضب النهر .

لم انقطع وتر المعزف ؟

لقد حاولت أن أضرب عليه نغماً أعى مما تطيقه قدرته ، ولهذا فقد انقطع وتر المعزف . »

لاحظت عبير أن لشعر الرجل مزية مهمة هى السهولة .. معان ساحرة لكن بوسع أى واحد أن يفهمها .. هذا يختلف عن عالم ذلك الأحمق الأسبانى .. أ ... كاد لسانى ينزلق بالاسم ..

سألته وهى تريح رأسها على خشب الدفة :

- « كم قصيدة كتبت ؟ »

حك لحيته الطويلة وقال :

- « ألف قصيدة .. وأكثر من عشرين مسرحية شعرية .. »

فى الفترة الأخيرة لاحظت عبير أنه يرسم كثيرًا .. كانت تؤمن دومًا أن هناك شيطانًا يسكن هؤلاء القوم ، يجعلهم تارة يكتبون الشعر وتارة يغنون وتارة يعزفون الموسيقا وتارة يرسمون .. الشيطان يحاول الخروج بأى شكل فإن لم يستطع خرج من شرايين قلوبهم فماتوا بسكتة قلبية ..

كان يترنم بعينين مغمضتين :

لقد جاء الحب .. وذهب

ترك الباب مفتوحًا

ولكنه قال إنه لن يعود

لم أعد أنتظر إلا ضيفًا واحدًا

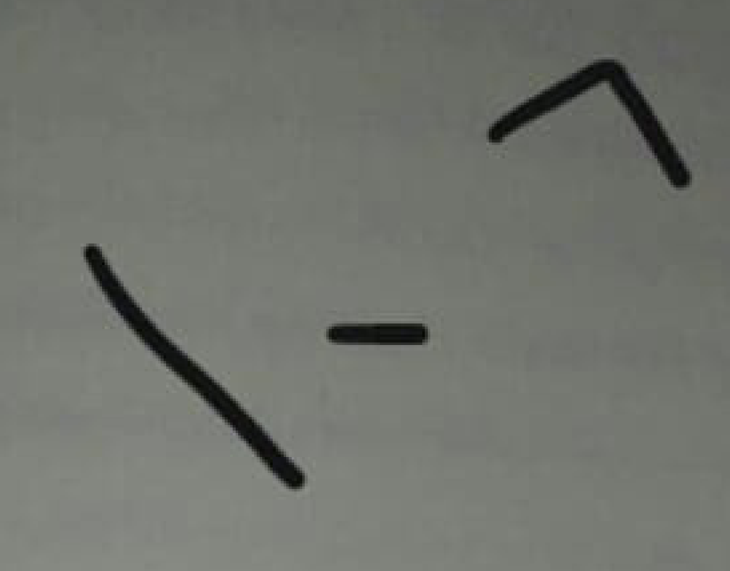
انتظره فى سكون

سيأتى هذا الضيف يومًا

ليطفئ المصباح الباقى .. ويأخذه فى عربته المطهمة

بعيدًا .. بعيدًا .. فى طريق لا بيوت فيه ولا أكواخ »

عرفت أن الحنين يمزقه لزوجته وأبنائه .. لقد قضى الوقت ينتظر هذا الضيف المبلل بالدموع الذي سيأتيه ذات ليلة ممطرة ويأخذه معه. معظم أشعاره تتحدث عن هذا الضيف .. دواوين البستاني والهلال ونورة الربيع .. ثم قصيدته الأجمل (جنتجالى) .. الموت هناك في كل قصائده ... وقد جاءه الضيف العزيز في سن الثمانين.



الشاعر السابع

(فى البــلاط)

- 1 -

عندما عادت لوادي عبقر كانت تحمل ذكريات جميلة عن ذلك الشاعر الرقيق .. والأجمل أنه لم ينتحر أو يقتل كما اعتادت مع الشعراء. هنا رأت في الصحراء شيئًا يضيء بلون أزرق مبهر .. يمشي على الرمال ببطء ، وحجمه يقترب من حجم طائرة هليوكوبتر .

ارتجفت لكنها كانت تعرف أن الجان هنا مسالمون .. لا يهتمون سوى بنظم الشعر وتلقينه للشعراء القادمين ، ويبدو أن بينهم متخصصين في الشعر الأموي والعباسي والجاهلي والبالادات الأوروبية والملاحم والهايكو الياباني .. الخ ..

كان هناك خيال بشري يتحرك من بعيد فأدركت أنه شاعر آخر .. جاء فوق الرمال يتعثر ، حتى دنا من الجني ، وراح يهمس له بكلمات .. كان يحفظه ..

وقدرت أن القصة القادمة تدور في بلد عربي على الأرجح . ثم إن الثغرة انفتحت وجدت نفسها تطير خلف الشاعر .. تطير بتلك الطريقة الدوامية المدوخة ..

* * *

عرفت على الفور أن هذه حلب .. حلب القرن الرابع الهجري بالذات .

المكان يبدو مألوفًا .. توشك على معرفة كل ركن وكل زاوية .

الشوارع مميزة والوجوه مميزة .. هذه حلب الساحرة طبعًا، قبل أن ترتبط بصور الخرائب والقصف وجثث الأطفال .

لكن هذا زمن خطر بالطبع لا يقل خطورة عن زماننا ، لأنه زمن تفتت الدولة العباسية .. لقد ضعفت قبضة بغداد على الدولة

(خان الوزير) .. يمكنها أن تراه .. هناك كان الشاعر يسكن .. وقد صار البيت متحفًا ، فهل دمره القصف يا ترى ؟

تتجه بخطواتها إلى القصر .. تعرف المكان ، فقد دخلته من قبل بلاط سيف الدولة ، وبما أن هذه فانتازيا فقد أفسح لها الحراس الطريق .

هناك رأت سيف الدولة يعتلي عرشه ، وقد وقف خلفه عبد يحرك مروحة من ريش الطاووس ، بينما وقف وزيران جواره يضحكان لضحكه ويقطبان لتقطيبه. هناك بساط ثمين يجلس عليه المستمعون وهم يضحكون في افتعال. جلست جوار عمود من الأعمدة وتمنت ألا يلاحظها أحد .. فتاة ذات ثياب غريبة هنا .

استطاعت أن ترى ذلك الشاعر العبقري المتعالي الذي يخلق المشاكل حيث كان ، والذي يصير كل بيت من أبياته حكمة تتوارثها الأجيال ويعطيك مدرس اللغة العربية الدرجة النهائية إذا استشهدت بواحد منها في موضوع التعبير .

كان واقفًا أمام الخليفة ينشده الشعر .. فلما رآها تدخل القاعة فر

رأسه بشكل عابر محييا ، فهو يذكرها من المغامرة السابقة ... ثم عاد يلقي الشعر

هنا لاحظت رجلا وسيما فاخر الثياب وإن كان أقرب للبدانة ، يبدو عليه أمارات الهيبة والسيادة .. يقف جوار سيف الدولة وينظر لشاعرنا في شيء من الاستخفاف .. كان يصغى للشاعر العبقرى وهو يقول :

عيبت له لما رأيت صفاته ★ بلا واصف والشعر تهذى طماطمه

هنا طقطق كثير من الجالسين بألسنتهم ، بدا الانزعاج على وجه القتيلة .. طبعا كان الكل يفهم ما يدور هنا ما عداها .. هنا قرب رجل من فمه الخالى من الأسنان من فمها وقال:

-- هو بهذا يهين كل شعراء البلاط .. يقول إن أحدهم لم يمتدح القتيلة قط لأنهم لا يقولون شعرا بل يهذون ! »

بدأت تفهم فسألته وهى تشير إلى الرجل الوسيم كريم المحتد:

-- وهذا شاعر طبعا وهو مغتاظ لما سمع ؟ »

-- بل هو من أعظم فرساننا وشعرائنا وقريب سيف الدولة.. وهذه إهانة مباشرة »

للتسهيل سنسمي الأول الشاعر العبقري، والثاني المغتاظ الشاعر الوسيم .. مال الشاعر الوسيم على سيف الدولة وقال له :

ـ « مولاى .. هذا الرجل يعانى غرورًا شديدًا ، مع أنه ليس من أصل كريم .. أنت تمنحه ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد .. بينما يمكنك الحصول على عشرين شاعرًا أفضل منه بنصف هذا الثمن »

وقف الشاعر العبقرى الذى تعرفه عبير جيدًا ، وأنشد قصيدة مؤثرة تمدح سيف الدولة .. يقول فيها معاتبًا :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ★ فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

قال الشاعر الوسيم الذى يوغر صدر سيف الدولة :

ـ « هذا بيت مسروق من قول دعبل :

ولست أرجو انتصافًا منك ما ذرفت .. عينى دموعًا وأنت الخصم والحكم »

وقف الشاعر العبقرى الذى تعرفه عبير وقال وهو ينظر بطرف عينه للشاعر الآخر :

أعيذها نظرات منك صادقة ★ أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقعت هذه العبارة كالسم على الشاعر الوسيم .. فهى تعنيه بالضبط .. دعك من أنه ممتلئ الجسد ..

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ★ وأسمعت كلماتى من به صمم

الخيل و الليل و البيداء تعرفنى ★ والسيف و الرمح و القرطاس والقلم

ولا تنكر أن الموقف لا يخلو من طرافة .. الشاعر يمتدح سيف الدولة ، فيفرط في مدح نفسه أكثر مما امتدح الأمير .. لكن الشاعر العبقري واصل إلقاء شعره ، بينما الشاعر الوسيم يجد لكل بيت شبيهًا في التراث الذي يحفظه . إن علماء العروض ورواة الشعر يعرفون مصطلحات السرقة المعقدة ؛ على غرار الاجتلاب والانتحال والإغارة والغصب والاهتدام والاختلاس ، وقد اتهم الشاعر الوسيم شاعرنا بكل هذه الجرائم . لكن شاعرنا العبقري واصل الإنشاد غير مهتم . أنا شخصيًا لو اتهمني أحدهم بالاهتدام لقتلته .. لكن العبقري تجاهل ما يقال تمامًا ..

في النهاية أبدى الأمير إعجابه بالقصيدة ، وأعطى الشاعر العبقري ألف دينار ..

رأت عبير الشاعر الوسيم يحتقن غيظًا ، ثم يغادر القاعة مغضبًا وهو يردد :

- « فلا نزل القطرُ .. فلا نزل القطرُ »

خرجت من القاعة لتقابل الشاعر العبقري يحمل صرة المال ، متجهًا للخروج وسط نظرات الحسد .. لما رآها هتف في مرح :

- « كيف حالك ؟ لم أرك منذ زمن .. »

قالت في توجس :

- «معنى هذا أنني سأعيش نفس اللحظات القاسية معك من جديد ؟»

- «لا تثق بشيء في فانتازيا .. لربما تحرك التاريخ بشكل مختلف»

- «كنت قاسيا على الشاعر الآخر ..»

- «إنه لا شيء .. ثروته وشهرته وقرابته للأمير كلها عوامل جعلت شعره الرديء يشتهر .. بينما هو شعر لا قيمة له في رأيي»

- 2 -

لكن العجلة دارت .. توترت العلاقة مع سيف الدولة ، فالأمير لن يحتمل طويلاً شاعرًا يمدح نفسه أكثر مما يمدحه ، ثم حدثت مشاجرة مع شيخ النحاة فى البلاط (ابن خالويه) اضطر معها الأمير إلى التحيز للرجل المسن. وسرعان ما وجدت نفسها تخرج من البلاد مع الشاعر متجهين إلى مصر .. هرب الشاعر من أميره المفضل.

قال لها وهو يربت على عنق الناقة:

- « لقد خرجنا من البلاد فى وقت مناسب .. القرامطة هائجون ويسيطرون على كل شىء .. »

سألته :

- « هل أنت حزين لترك سيف الدولة ؟ »

قال شاردًا :

- « تسع سنوات وثمانون قصيدة أو أكثر .. لم يحدث فى تاريخ العرب أن امتدح شاعر حاكمًا بهذا العدد من القصائد . إنه الحاكم الوحيد الذى أحببته حقًا وارتحت له ووثقت به ، ورافقته فى كل حملاته البطولية ضد الروم .. وصفت كل شىء .. رثيت من مات من أقاربه .. امتدحته .. وصفت معاركه .. إن أصدق مدحى كان من أجله ومع ذلك كان يعرف قدرى جيدًا .. »

ثم أنشد :

بينى وبينك ألف واش ينعبُ ★ فعلام أسهب فى الغناء وأطنبُ ؟
صوتى يضيع ولاتحس برجعه ★ ولقد عهدتك حين أنشد تطربُ

كان يختفى أثناء الرحلة كثيرًا جدًا ، وقد أدركت أنه يرحل كثيرًا لوادى عبقر ليستزيد من الشعر .لابد أن الجنى الخاص به نشط جدًا أشعر جنى فى التاريخ

بعد أيام وليال فى صحراء سيناء الرهيبة .. وبعد الفرار من مئات الذئاب وهجمات عشرات من قطاع الطرق ، بلغ ومرافقته وقافلته (مصر) ...

بدا الجو مألوفًا لعبير فعلًا برغم أن ألف عام تفصلها عنه ..

سألته وهما يقتربان من مشارف المدينة الضخمة (الفسطاط) :

ـ « إلى أين أنت ذاهب ؟ »

ـ « سؤال سخيف .. طبعًا ذاهب للقاء الحاكم (كافور الإخشيدى) »

ـ « وماذا تنوى عمله عنده ؟ »

ـ « سؤال أسخف .. سأمدحه طبعًا .. »

حكت رأسها مفكرة ثم سألته :

ـ « هل تعرف من مآثره ما يكفى لجعلك تنفعل وتكتب شعرًا ؟ »

رفع رأسه فى شمم وضرب خاصرة الحصان بكعبيه ليسرع أكثر وقال :

«.. يا فتاة .. أنا لم أمدح أحدا ولن أمدح أحدا عن اقتناع سوى (سيف الدولة) . أما هنا فالمدح مجرد وسيلة للتقرب من الرجل .. هذه صفقة عادلة .. أنا لدى شعر ممتاز وهو لديه مال ونفوذ وسلطان .. خذ هذا وهات ذاك .. نفس ما تفعلينه فى السوق .. »

كافور الإخشيدى حاكم مصر الذكى المخيف ..

أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدى .. عبد عاش فى مصر ثم بيع إلى أمير سورى .. مات سيده أمير دمشق ، فولاه أبناه مكان أبيهما لأنهما يعرفان ذكاءه وشجاعته جيدًا .. ثم اتجه إلى مصر ليهزم ملكها (غلبون المغربى). لم يكن حاكمًا سهلًا أو ساذجًا ، ولم يكن لينخدع بمدح الشاعر العبقرى له ..

لم يحب (كافور) شاعرنا قط ، لكنه لم يعلن هذا ..

من السهل أن تجده يبتسم له ، لكنه لا يعطيه كل كيانه ، ويكتفى بأن يمنحه مكافأة بسيطة ولا يعيره أذنه ..

نحن الآن فى مجلس كافور .. هذا هو شاعر من شعراء مصر ينشد فى حضرة كافور ..

عندما انتهى الشاعر من قصيدته أنشد شاعرنا المغرور بصوت خافض كأنه يكلم نفسه :

-- «أرى المتشاعرين غروا بذمى ★ ومن ذا يحمد الداء العضالا ؟

ومن يك ذا فم مر مريض ★ يجد مرًا به الماء الزلالا »

كانت هذه بصقته الأخيرة على بلاط كافور وعلى البلاد التي لم تعطه ما أراد ولم تقدر عبقريته..

قال لها إنه سيهرب من مصر فهو لم يعد يتحملها . برغم أن كافورًا رفض ذلك ، فإنه أصر على الفرار . وتم ذلك أثناء صلاة عيد الأضحى . انطلق نحو الصحراء ومعه عبيد .. وهو لا يكف عن تأليف أبيات عبقرية تشتم كافورًا ومصر (للأسف) . ولسوف يذكرها الأدب للأبد .. أنت تعرف قصيدة « عيد بأي حال جئت يا عيد ؟ » . بعض الأبيات يسخر من مصر نفسها :

إني نزلت بكذابين ضيفهم

عن القرى وعن الترحال محدودُ

ما يقبض الموت نفسًا من نفوسهم

إلا وفي يده من نتنها عودُ »

قالت في شيء من الحرج :

- « هأنتذا قد بدأت في قلة الأدب ! »

لكنه لم يعلق وواصل الهجاء :

- « أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه .. فله في مصر تمهيدُ ؟

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيدُ »

لا تشتر العبد إلا والعصا معه

إن العبيد لأنجاس مناكيد

ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن

يسيء بى فيه عبد وهو محمود »

هذه أبيات وقحة لكنها عبقرية ، والكل يعرفها ويستعملها حتى اليوم .. إن الإهانة التى تخرج على شكل شعر لا تزول أبدًا .

- 3 -

العجلة تدور بسرعة ، والشاعر العبقرى يرتحل إلى شيراز ، ليواصل مهنة كتابة شعر المدح ....

هناك كتب عن (ضبة بن يزيد) ـ وهو من القرامطة ـ أبياتًا من الشعر فى غاية البذاءة ، مطلعها :

مَا أنْصَفَ القومَ ضَبَّهْ

وَأمَّهُ الطُّرْطُبَّهْ

وَإنَّمَا قُلْتُ مَا قُلْتُ

رَحمةً لا مَحَبَّهْ

المشكلة هنا أن لضبة أقارب غاية فى الخطورة . منهم (فاتك الأسدى) ـ خاله ـ الذى يعتبر من سفاحى القرامطة المرعبين ، وقد عرف ما قاله شاعرنا فصمم على الانتقام . راح يبحث عنه فعرف أنه غادر شيراز مع خادمه وابنه .

كانت عبير مع الشاعر فى الفلاة ، عندما سمعت صوت حوافر حصان ..

لحق بهما وسط الغبار فارس مذعور أبلغ شاعرنا العبقرى أن فاتكا يبحث عنه ، أو كما قال:

He is out to get ya..

من الأفضل أن يجد لنفسه حراسة .. ربما يحتاج الأمر لعشرين فارسًا يحيطون به ..

لكن شاعرنا استخف بالتحذير وقال بيت الشعر الشهير :

يرى الجبناء أن العجز عقلٌ

وتلك خصائص الطبع اللئيم

كان هذا هو العام 354 غرب بغداد .. منطقة دير العاقول ..

لوجئت عبير والشاعر بصف من خمسين فارسًا يتوسطهم فاتك نفسه وكلهم يلوحون بالسيوف والشر على وجوههم . عينا فاتك يمكن أن تشعلا الفحم لو أن أمامه فحمًا . لابد أنه يردد مقطع (ضبة والقرطبة) في ذهنه كي يغضب أكثر .. سيكون الانتقام شهيًا ..

قال الخادم (مفلح) متفلسفًا:

-« لا شأن لنا بهذه القضية .. الخدم والنساء ينجون ، بينما هم يريدون رأس سيدى لا أكثر ! .. سوف ينتهون بسرعة ونمر »

نظر الشاعر في غيظ للغلام .. لو كان الوقت مناسبًا لجلده ، لكن لا وقت لهذا .. لذا تقدم بالحصان ليواجه الجمع ..

الحق أنه كان شجاعًا لا شك في هذا .. وكان فارسًا .. إنه المتناقضات في ثياب إنسان ..

ولو أن الحياة تبقى لحي

لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ

فمن العجز أن تكون جبانًا

وعلى الفور انطلق الشاعر يعمل سيفه فى القوم ..

كان الحصان يبعثر النقع من حوله ، ومن فوقه يلوح بسيفه ويصرخ .. هوى بسيفه على عنق أحد الرجال فطارت رأسه متدحرجة تحت حوافر الحصان .. وانطلق رمح نحوه لكنه انحنى فتفاداه فى اللحظة المناسبة ... لكن الحصان تعثر وسقط .. كاد يفر جريًا لكن خادمه استوقفه قائلًا فى لهجة اللوم :

- « كيف تهرب يا سيدى ؟... ألست القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني .. والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؟.. »

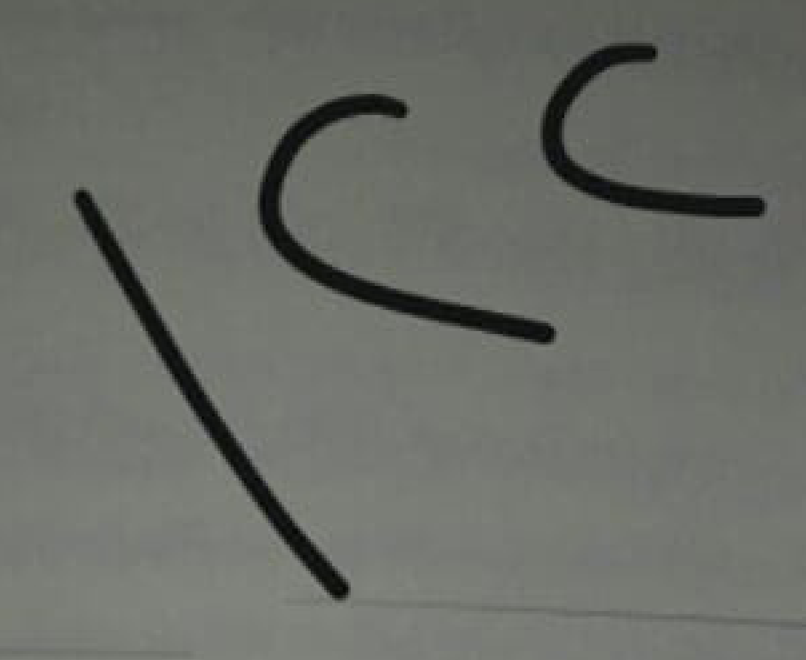
نظر له الشاعر طويلًا وتمنى أن يحطم رأسه ، ثم قال من بين أسنانه :

- « قتلتنى يا هذا ! .. قاتلك الله !! »

واستدار ليواجه أعداءه ...

لم يستغرق الأمر وقتًا حتى طار عنقه الذى يحمل رأسًا عبقريًا خارقًا .. ثم طار عنق ابنه . كان الخادم مفلح سعيدًا لأنه لا أحد يقتل الخدم ، لكن تبين أنه كان مخطئًا .. سرعان ما طار عنقه .. يبدو أن الخدم يموتون كذلك للأسف .

مثل القرامطة بالجثة وداسوا عليها بالحوافر ، وتركوها معطرة فى
الغبار تنتظر من يدفنها ..
من النادر أن يقتل بيتان من الشعر ثلاثة رجال ، لكن هذا ما
حدث ..
يبدو أن مسلسل مقتل الشعراء أو انتحارهم قد بدأ من جديد ..
وقفت عبير تلهث وتبصق التراب .. وتبعد عن نفسها الذباب الذى
يحتشد حول الجثث .. ثم سمعت خطوات المرشد قادما . لم تنظر له بل
ظلت وهى ترمق المذبحة وتشم الدماء :
-« عشت نفس المغامرة مرتين بذات البشاعة . طبعًا لن تسألنى
عن اسم هذا الشاعر .. ليست الحياة بهذه السهولة »
اهتز صدره بالضحك .. وأخرج القلم الجاف الزنبركى إياه ، وراح
يمرر يده عليه كأنه يلف سيجارًا ، ثم قال :
-« هذه المرة السؤال بسيط .. من الشاعر الوسيم كريم المحتد
الذى كانت هناك منافسة بينه وبين شاعرنا ؟ شاعرنا يرى أنه محدود
الموهبة لكن ثراءه وقرابته للأمير هما سبب ذيوع شعره ، بينما
الشاعر الوسيم يرى أن شاعرنا وقح لا يليق به مخاطبة الأمراء .. من
الشاعر الوسيم ؟ » .



الشاعر الثامـن

(قارئ منافق)

- 1 -

هناك فوق رمال الصحراء مشت عبير ..

تشم رائحة وادى عبقر التى اعتادتها .. تشعر بملمس الرمال المعهود ، وترمق السماء المظلمة التى يشقها شهاب هو شيطان ملتهب من آن لآخر ..

يمكنها أن ترى الجان يجتمعون حول النار فى الظلام بينما تعوى الذئاب حولهم. تبًا لمنظرهم بعيونهم المشقوقة بالطول وحوافر الماعز وضحكاتهم والنور الأخضر الذى يشع منهم. من السهل أن تجن أو تفقد صوابك لو قابلت أحد هؤلاء فى الصحراء ليلًا ، لكنها على الأقل تعرف أنهم لا يبالون بها. هم لا يمارسون عملًا سوى كتابة الشعر وتلقينه للشعراء ..

الاكتشاف الجديد هو أنهم عالميون .. يعلمون كل شعراء العالم .. إذن هنا جنيًا يتكلم بلغة قبائل الشيربا أو الخوسا مثلًا. ليسوا متخصصين فى اللغة العربية فقط كما حسب العرب.

رأت ذلك الشاعر الغربى يجلس معهم حول النيران ، ويصغى لهم. لم تتبين ملامحه لكنها أدركت أنه يدخن غليونًا غريب الشكل ذا مبسم طويييييييييل ، ورأسه أصلع قليلًا.

ثم رأت الجنى يقف ويبعثر الرمال بحافره ومعها بعض من الجذوات المتقدة ، ثم حمل الشاعر من عنقه وهتف بشىء ما ثم طوح به ..

اجتاز الشاعر ثغرة في الوجود ، وفوجئت بأنها تسحب معه ..

فإلى أين ؟

* * *

كانت في كوخ قذر فقير ..

البرد شديد يجعلها تنتفض انتفاضًا ..

في الفراش الذي نعتبره فراشًا على سبيل التجاوز ، كانت ترقد فتاة رقيقة نحيلة من طراز Pritzel lady أو البنت البسكويتة المعروف. هشة رقيقة لكنها أقرب إلى السقم . بطلة رواية فكتورية من اللواتي يبكين طوال القصة ثم يمتن بالسل .

كانت هناك سيدة عجوز تدلك قدمي الفتاة بينما هذه الأخيرة ترتجف .

في ركن الغرفة الضيقة يوجد مقعد متهالك ظل باقيًا بمعجزة ، وفوق المقعد جلس رجل ذو سالفين كثين ونظرات مزعجة يدون شيئًا في دفتر .

كان البرد قارسًا ، وبدا لعبير أنه ما من شيء يقدر على تدفئة هذه الطفلة .. لابد من نار .. لابد من مدفأة ولكن أين ؟

هنا دخل الغرفة رجل نحيل له نظرات حادة .. أصلع الرأس ممزق الثياب بادي الفقر . يذكرها كثيرًا بالشيخ رفعت إسماعيل الذي خاضت معه مغامرة من قبل .. لكن ليس هو

قال الفتاة بلكنة أمريكية واضحة:

«سوف تشعرين بالدفء الآن»

كان يحمل قطًا مسالمًا بلا .. فاتجه إلى قدميها الخارجتين من تحت الملاءة، وراح يحاول تثبيت القط عليهما. طبعًا كان رد القط مقتضبًا: «ماو!» .. ثم خمش يده ووثب على الأرض فركض من جديد يحاول رغيه لقدمي الفتاة التي يقتلها الدرن ..

رأى عبير فهز رأسه محييًا وقال:

«معذرة .. هذه ابنة عمي وزوجتي .. إنها مصابة بذات الصدر. ليتني لو كنت أنا المصاب»

هنا دق الباب .. اتجه الرجل ليفتحه ولم يسمح للقادم بالدخول. على العموم هو لا يتلقى زيارات إلا من الدائنين، أو الجيران الذين جلبوا لزوجته بعض الكرنب لأنهم أدركوا أنها طاوية. لكنه رأى كهلًا متأنقًا يرفع قبعته محييًا:

«كيف الحال؟»

«كما ترى ..»

«أخبار طيبة .. سوف أشترى قصيدتك الغراب بجنيهين ..»

قال الشاعر في غيظ:

«أكتب القصيدة في عشر سنوات ثم تشتريها بجنيهين؟»

قال الرجل كأي بائع سيارات نصاب:

ـ « السوق نائمة وكذلك الشعر .. ثم من الذى يهتم بالكلام عن تمثال غراب يجثم على باب حجرتك ؟ بينما ضوء المصباح يلقى عليه ظلالاً شيطانية ! »

بدا على الشاعر أنه أسقط فى يده .. اتجه إلى كومة من الكتب على الأرض فبحث حتى وجد مجموعة من الأوراق ، وكومها وعاد للرجل قائلاً :

ـ « لا أملك الخيار .. هلم هات الجنيهين »

كأنه يقول : خذها .. لا بارك الله فيها ..

هنا فقط تكلم الرجل الأصلع حاد النظرات الذى يجلس بلا كلام .. هب واقفًا وصاح بلهجة شبه فرنسية :

ـ « لا تفعل !! .. هذه القصيدة ستكون أهم قصيدة فى الأدب الأمريكى بعد أعوام ! »

قال الشاعر فى سخرية :

ـ « الطعام هو أهم شىء عندى الآن .. »

نهض الرجل الكئيب أصلع النظرات وجمع أوراقه ، وقال :

ـ « أنت عبقفى (عبقرى) سيئ الحظ فعلاً .. لكن أؤكد لك أنك ستندم »

نهض لينصرف .. هنا قررت عبير أن هذا كله كاف .. بالتيمور وغراب وقط وفقر .. هذا واضح أكثر من اللازم

غادرت الكوخ الحقير لتقف في الخارج حيث البرد والثلج . لكن الهواء نقي بالطبع بالمقارنة مع داخل الكوخ . راحت تراقب الرجل حاد النظرات وهو يبتعد وسط العربات التي تجرها الخيول والنساء اللاتي يحملن المظلات ..

هنا وجدت المرشد يقف جوارها وقد دس يديه في جيبيه وعود خلة بين أسنانه علامة على اللامبالاة .. قالت له في ضيق :

- « أنتم تسخرون مني .. لست غبية لهذا الحد. يمكنك أن تنهي هذه القصة فقد عرفت اسم الشاعر.. لنعد لوادي عبقر »

قال في برود :

- « ليس هذا الشاعر موضوعنا .. بل نتكلم عن الشاعر الآخر النحيل حاد النظرات الذي غادر الكوخ . إنه تلميذ الشاعر الأول وتأثر به كثيرًا جدًا .. هيا .!.. الحقي به ! »

- 2 -

هزٌ جميلٌ قوى ناعمٌ يجوس فى دماغى

كما يجوس فى شفته

وعندما يموء تكاد لا تسمعه

فلرنين صوته رقة ورصانة

وسواء زمجر أم لان فهو دائمًا عميق الصوت غنى النبرات

وهنا يكمن سرّ فتنته(*)

★ ★ ★

ستائر شرقية .. طنافس .. بخور .. جلد نمر على الأرض وعلى الجدار .. مباخر شرقية رائعة الجمال .

كان يدخن المزيد من الأفيون كعادته .. أدركت سر هذا الغليون غريب الشكل ذا المبسم الطويييييييييييييل .. فهو مخصص لحرق هذا المخدر .. معظم أدباء ذلك العصر كانوا يتعاطون الأفيون والكوكايين ويشربون الأبسنتى الأخضر اللعين .. والحقيقة أنهم لم يكونوا ينظرون لهذه الأشياء نظرتنا الحالية .. تذكر أنه فى بعض العصور كان شرب الشاى نوعًا لعينًا من تعاطى المخدرات .. أى أننا بالنسبة لهم مدمنون .

(*) كل المقاطع هنا ترجمها عن الفرنسية حنا الطيار وجورجيت الطيار

سألته وهو يسترخى على الأريكة المغربية التى يمتلكها :

« لماذا أحببت شعر ذلك الشاعر الأمريكى ؟ »

قال وهو ينفث سحابة دخان كثيفة :

« لأنه قد فتش فى عقلى ووجد الأفكار والقصائد التى لم أكتبها بعد .. كلامًا يحمل الاكتئاب والتشاؤم وحب الموت .. لقد ترجمت معظم أعماله للفرنسية .. »

تأملته فى فضول بجبهته الغريبة العريضة ، ونظراته الكئيبة الحادة . أدركت أن هناك تحت تلك الجمجمة عقلًا مذهلًا لكنه مجنون كذلك .. لربما لعب الأفيون دورًا ..

كانت صحته تتدهور والإسراف قد جعله يعانى أشد حالات الفاقة .. لكن لا شك أن الأفيون هو الذى قتله فى النهاية. لم يكن شاعرًا فقط بل كتب دراسات نقدية كثيرة ، عن فلوبير وتيوفيل جوتييه و .. و ..

هنا شعرت بوجود شرير فى المكان .. رفعت عينيها فوجدت فتاة سوداء اللون كأنها أبنوس ، فارعة الطول جدًا .. تمشى فى رشاقة . ربما عنها عبير غريب .. الحق أنها كانت فاتنة ومخيفة .. نفس الفتاة التى تراها فى أفعى رشيقة تزحف بين الأعشاب . كان شعرها المنثور ما أعطاها طابعًا عجيبًا ..

تهلل الشاعر فى انبهار وهتف :

« جون دوفال ! »

بعينين زرقاوين وسط وجه أسود راحت تنظر له ثم تغير وهتفت في توحش :

ـ « من هذه يا ....؟؟ . »

قال في ارتباك :

ـ « هي مجرد صحفية من مصر .. »

قالت متهكمة وقد دست يديها في خصرها :

ـ « فينوس البيضاء هذه المرة .. لقد انتهى عصر فينوس السوداء إذن »

كان يهيم بها حبًا .. جون دوفال كانت عقدة حياته ، وقد كتب عنها قصائد كثيرة جدًا .. بل إنه حاول الانتحار أكثر من مرة لأنها خذلته . كتب عنها :

زارني الشيطان يومًا في غرفتي العالية محاولاً أن يضبطني متلبسًا بالخطيئة

فقال : أتوق أن تخبرني عن أحلى ما فيها ..

فبين كل المفاتن التي تصنع سحرها

ومن الأشياء الوردية والسوداء التي تكون جسدها الفاتن

عندما يلقي بسحره كل شيء فيها لا سبيل إلى المفاضلة

فكل ما فيها بلسم

إنك يا نفسي تجيبين كارهة إنها كالفجر تبهتني وكالليل تعزيني
دلني أجهل الشيء الذي سحرني إن أنفاسها تصنع الموسيقى وإن
سرتها يصنع العطور وقال عنها :

سواء هبطت من أعالي السماء أم خرجت من أغوار الأرض أيتها
الحسناء

إن نظرتك الجهنمية الإلهية تسكب بغموض الإحسان والجريمة ..

الخمر في عينيك الفجر والغروب

تسكبين العطر كمساء عاصف ..

قبلاتك رحيق وفمك قارورة طيب

تجعل البطل جبانًا والطفل شجاعًا ؟؟

وسواء خرجت من ظلام الهاوية أم هبطت من الكواكب فإنك
تزرعين بغير قصد الفرح .

تحكمين الكل ولا تسألين عن شيء ..

تدوسين الجثث وتهزئين بها

لأن القدر المفتون يقتفي كالكلب أثر تنانيرك ..

في هذه اللحظة دخل الغرفة رجل ملتح ذو ثياب مبهرجة ملوحًا
بعصاه ، واتجه ليصب لنفسه كأسًا من الخمر ، ثم صاح في الشاعر
الجالس

ـ « لم تأت لمعرضى كما اتفقنا ! »

قال الشاعر لعبير مقدمًا الضيف الجديد :

ـ « يوجين ديلاكروا .. الفنان الرومانسى الشهير .. لابد أنك رأيت لوحاته »

هتف ديلاكروا غير مبال بتحيتها:

ـ « كل أعضاء حركة بارناس الرومانسية كانوا هناك .. مانيه كان هناك .. فلوبير كان هناك .. فكتور هوجو أرسل برقية .. أما أنت فلم تهتم ! »

ـ « أرجو أن تقبلوا اعتذارى »

هنا صاحت فينوس السوداء فى لهجة تشف .. أنها شرسة حقًا ، ولا شك فى أنه كان يحمل نحوها درجة مهمة من الانسحاق الماسوشى من الصعب أن يكتب المرء كل هذه الأشعار فى امرأة متنمرة مثلها قالت له :

ـ « لقد صودر ديوانك الأخير .. المحكمة ترى أنه منحل وخليع وأنك تحدثت عن علاقات مريضة كثيرة .. ثم إن القاضى اشترط حذف ست قصائد »

غطى الشاعر عينيه كأنه لا يطيق تخيل هذا المشهد ، أو كأن تغطية العينين تسد الأذنين ، وصاح من أعماق روحه:

«.. مون ديو !! ..... كأنهم اقتطعوا البنكرياس من جسدى ! »

ثم ارتجل بعض أبيات الشعر:

إن الحزن فى نفسى يتصاعد كمدّ البحر

ويترك عند انحساره على شفتى المرّتين ذكرى محرقة

لطعم وحله المرّ

عبثًا تتزلق يدك على صدرى المبتهج

فما تبحث عنه يا صديقى هو مكان خرب دمره ظفر وناب امرأة متوحشة

قلبى عبثت به الغوغاء

فيه يسكرون ويتذابحون

سألت عبير الشاعر عن اسم هذا الديوان ، فابتسم كمن يقول :

« هل تمزحين ؟ »

-- « لا أمزح .. لماذا ؟ »

-- « اسم الديوان شهير جدًا .. لو ذكرته فالأمر لا يحتاج إلا لربع دقيقة مع جوجل ، باعتبار أنك تتعاملين مع شركة إنترنت حقيرة بطيئة مثل (....) .. لكنى بدأته بأن اتهمت القارئ بأنه منافق مثلى ، يخفى مشاعره الشريرة التى هى المنبع الحقيقى للذات »

* * *

لو كانت حياة هذا الشاعر تتكون من مجموعة من العقد ، فلا شك أن العقدة الأولى ارتباطه الشديد بأمه .. العقدة الثانية هي فينوس السوداء .. العقدة الثالثة هي الأفيون والخمر .

عندما عرفت الأم أن حالته تتدهـور أرسلت تطلب منه أن يقيم عندها ، وكانت هذه من أخصب فترات حياته ..

بعد فترة أصيب بالفالج وصار عاجزًا عن الكلام ، ثم أصابه الشلل لمدة عامين ، وتوفي ودفن في مونبارناس بباريس .

لقد كان شاعرًا عبقريًا ، لكنه كتلة من التشاؤم والاكتئاب والعقد النفسية ... وفيما بعد كتب عنه سارتر كتابًا كاملاً . لكننا لن ننسى أن جذوره خرجت من جذور العبقري الأمريكي المفلس الذي قابلناه يخدع القطة ..

الشاعر التاسع

(إنه الانحلال)

- 1 -

لو أنك رأيت حفلًا من حفلات الجن في وادي عبقر لملئت منه فرقًا هذا مشهد لا يناسب مرهفي الحس أو أصحاب القلوب الضعيفة ، خاصة أنك تشعر بأنه حفل شيطاني مما كان القدماء يحسبون أن الساحرات يجتمعن له. يتواثب الجان كألسنة النيران الخضر من حول المركز ، وتدوي ضحكاتهم الكابوسية .. الأصوات المريعة التي كان العرب يسمعونها في الصحراء ليلًا ويسمونها (عزيف) ، وهي التي ألهمت لافكرافت بكتاباته عن عبدالله الحظرد .

طبعًا يمتزج هذا بضحك الضباع المفزع مما يعطي المكان كله صبغة كابوسية شنيعة ..

ورأت عبير ذلك الشاعر المعمم يجلس وسط الجالسين ويلوح بكأس خمر . من الصعب أن يجلس المرء جلسة ماجنة مع الجان لكن من الواضح أنه لا يلاقي مشاكل ضميرية ..

ثم إنه أفرغ الكأس في جوفه ونهض . وأدنى أذنه من أحد الجان الجالسين يتلقى منه الشعر ، وهز رأسه موافقًا ، ثم حلق يجتاز الثغرة وجدت عبير نفسها تجتاز الثغرة معه ..

إلى أين ؟

* * *

إلى البصرة طبعًا ..

ربما كان من الممكن أن تكون في الأهواز أو الكوفة أو بغداد لكن بوسعك في هذا الجو أن تدرك أنها بداية العصر العباسي ، ولو أردت أن تصف أهم سمة في العصر العباسي لوجدت أنها صفة تدليل الفرس .

كانت تعرف أنها جارية حسناء .. اسمها جنان ..

رشيقة جميلة .. وككل جواري ذلك العصر هي تجيد قواعد اللغة ، وتحفظ الكثير من القصائد الشعرية .. يبدو أن لباقة الحديث كانت من سمات الجمال وقتها .

كانت تعمل عند آل عبد الوهاب الثقفي

الحياة باسمة والقوم مهذبون ، لكن هناك المشكلة التي تضايق النساء في كل زمان :

التحرش .. التحرش اللفظي والمادي .. هناك نوع من التحرش لا يتكلمون عنه كثيرًا هو التحرش البصري ، وقد كان ذلك الفتى شاعرًا من الدرجة الأولى .. اسمه الحقيقي (الحسن) لكنه عرف باسم آخر في عالم الأدب ، وهو من الشعراء الفحول .

يلاحقها حيثما ذهبت بعينيه .. يلاحقها بشعره .. يلاحقها بالمشي خلفها في كل مكان ... التخلص منه مستحيل .

كان الشاعر جميلًا بحق ، لو ظهر اليوم لصار بطلًا لعدة مسلسلات وأفلام .. ربما بشيء من الخيال تصورت أنه فتاة جميلة تثبت لحية مستعارة .. برغم هذا فالفتيات لا يرحبن بالتحرش مهما كان .. هذا الإلحاح يحرمها حريتها في الاختيار ..

حاولت أكثر مرة أن تلومه أو تهينه ، فلما فشلت ، ذهبت لمولاها الثقيفي .. وهو رجل وقور قوي الشخصية .

قالت له :

ـ « هذا الشاعر يلاحقني يا سيدي في كل مكان ... حاولت ألا أضايقك لكن لا يبدو أنه ينوي أن يرتدع »

بالنسبة للعرب كان التحرش بالجارية لا يختلف كثيرًا عن التحرش بالزوجة ، لكن سيدها كان متعقلًا .. ذهب ليزور أخا الشاعر .. هناك رحبوا به وأكرموا وفادته ، فقال في كياسة :

ـ « أخوكم الحسن يضايق جاريتي جنان .. كنت أنوي تأديبه ، ثم قررت أن أخبركم بالأمر .. أعرف أنكم ستأتونني بحقي »

قال الأخ ما معناه :

ـ « سوف نحسن تربيته .. لا تقلق .. سوف نهشم لك رأسه .. أنت تعرف أن الخمر أطارت صوابه »

هكذا نهض راضيًا ليغادر المكان ..

لهاة تذكر أن الحسن شاعر .. فى ذلك الوقت كان الشعر أخطر من
الشبكات الاجتماعية بمراحل . تشهير الشعراء أسوأ بكثير من الفيس
بوك . كل الناس سيتذكرون الأبيات ولسوف يتناقلها الدارسون أبد
الدهر .

هكذا قال للأخ فى ارتباك :

-« ولكن .. لتنس ما قلته لك .. الحقيقة إننى أخشى لسانه »

نظر الأخ للخلف ففوجئ الثقيفى بالشاعر يقف عند باب الغرفة ،
رأه بما عليه كمن أمين ..

قال الشاعر للثقيفى فى كبرياء :

-« مهما سبنى أهل ثقيف فأنا لن أسبهم .. إن عرضى مباح لهم
وهذا من حقهم ما دامت بينهم حبيبتى »

طبعا قالها بأبيات شعر رقيق مشهورة ، لكننا لن ننشرها حتى
نهرب من الأخ جوجل ..

تلقى الثقيفى وعدا من الشاعر أنه لن يضايق جنان مرة أخرى ..
لكن الرجل لم يكن ممن يرتدعون .

★ ★ ★

أما مغامرته الكبرى التى تدل على اندفاعه وزندقته ، فهى عندما
خرجت عبير / جنان مع سيدتها فى رحلة الحج فوجدت عبير بأن
المرض بلغ بهذا الشاعر الزنديق أن يذهب للحج ليتحرش بها !

لم تصدق عبير أن هناك من بلغت به الزندقة والجرأة هذا الحد .. على أن منظر الكعبة يثير الرهبة والخشوع لدى أعتى النفوس زندقة .. لقد رأى الكعبة فارتجف وأنشد أبياتًا رائعة لم ينسها الأدب حتى اليوم. خاطب فيها الله العادل مليك الملوك جميعًا .. لبيك اللهم الحمد لك .. ليس لك شريك ..

لكن ـ كما تعرف ـ هؤلاء قوم متقلبون .. لعله ذلك السقم النفسى المميز للفنانين والذى نسميه ثنائى القطبية .. فى لحظة هم مرحون وفى لحظة هم قمة الاكتئاب .. فى لحظة هم شديدو التدين وفى لحظة هم زنادقة ..

هكذا سرعان ما نسى رهبة الإيمان هذه ..

عبير لم تصدق قط أن هناك من يتحرش بفتاة فى الحج حتى لو كان الشيطان نفسه ، لكن هذا حدث فعلاً .. عندما قبلت الحجر الأسود تسلل ذلك الشاعر الوغد وتظاهر بأنه يقبل نفس الحجر، وتلاصق الخدان ..

كتب يصف هذا الموقف بشعره قائلاً :

ـ « لقد التف الخدان عند الحجر الأسود .. لولا تدافع الناس لظل ملصقًا خده للأبد .. »

الواقع أن هذا الرجل كان خارقًا فى سوئه وتمرده وجموحه

- 2 -

بعد الرحلة والعودة ، رأت الحسن قادمًا في الطريق نحوها..

قبل أن يفتح فمه . أمسكت بلحيته في جرأة وشدتها بشراسة

وقالت :

«من أنت ؟ كيف جاء للعالم حيوان مثلك ؟»

«أبي !.. لو كنت أعرف لما جئت !»

ولعلها كانت تعرف ..

المشكلة هي أنه نشأ في بيت مات الأب فيه ، وانهمكت الأم - وهي

صماء فارسية من الأهواز - في علاقات عاطفية تهمة .. كان هذا

عصر أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء الدولة العباسية ..

هنا تربى الفتى دون رقابة حقيقية ..

عندما ذهب إلى الأهواز وهو في سن الخامسة عشرة ، قابل شاعرًا

ماجنًا فاسقًا اسمه والبة بن الحباب . كانت هذه هي النقطة التي غيرت

حياته بالكامل . هل تريد لمن نشأ مع والبة بن الحباب أن يصير عالم

الفيزياء أو فقيهًا ؟ كما يقول اللمبي للمذيعة : « واحد مصاحب على

امرأة واشرف كفة حيطلع إيه ؟ طيار ؟ » .

لقد ذهب الشيطانان إلى الكوفة حيث يقيم والبة ..

والبة أيضًا رأى فى منامه أن الشيطان يكلمه .. قال له :

ـ « هذا الذى ينام جانبك أشعر من الجن والإنس .. ولأفتن بشعره الثقلين ! »

أدرك والبة أن من يكلمه فى المنام هو إبليس .. إبليس الذى قال إنه مستعد ليسجد لهذا الشاعر الفاسق !

قضى الشاعر فترة طويلة فى الكوفة.

ثم إنه عاد إلى البصرة .. هذه كانت فترة خصبة فى حياته لأنه درس اللغة العربية والقواعد والنقد الشعرى .

لم يخف فى أى لحظة احتقاره للعرب . لأنه كان شعوبيًا يؤمن بتميز الفرس ، وكان يقول شعرًا معناه:

ـ « من هم بنو أسد ومن هى تميم أصلاً ؟ إن العرب لا قيم لهم عند الله أصلاً ! »

واختلط بكثيرين من المانويين والمجوس وتشرب أفكارهم لدرجة أنه اعترف فى شعره بأنه أغرق نفسه فى اللهو والمعاصى لأنه لن يبعث ..

كانت عبير صارمة فى رفضها لهذا الشاعر ، وللمرة الأولى تشعر

أن لديه قلبًا يمكن أن يجرح .. لقد آذته كثيرًا ، ولعلها كانت قصة

الحب الحقيقية الوحيدة فى حياته ..

هنا قال لها دامع العينين :

- « سوف تفخرين يومًا ما بأننى خلدت اسمك فى الشعر ، ولسوف

تندمين على أنك لم تكونى لى .. »

ثم قدم لها زهرة وقال :

- « وداعًا يا جنان .. أنا ذاهب إلى مصر »

كانت هذه فترة وقعت فيها أزمة البرامكة ، عندما غدر بهم الرشيد ..

خطر له أن الوالى العباسى فى مصر سوف يعنى به ..

لم تدر ما تقول .. إنها تكرهه .. لكن المرأة تحب أن يوجد العاشق

الذى يحوم حولها كذبابة والهة ... إنها تكره فقده مهما كان لزجًا ..

★ ★ ★

ذهب الشاعر لمصر يمتدح حاكمها الخصيب .

بالطبع مارس نفس الحياة المتهتكة الفاجرة ، وغرق فى اللهو

غير أن هؤلاء الشعراء القادمين من الشرق لا يحبون مصر غالبًا

لم يحب جو مصر ولا الخمور فيها ، وقد وجد من أهلها بعض التحفظ

مما قيد حريته ..

هكذا عاد إلى بغداد ..

هناك عاش .. يدخل السجن ويخرج منه ..

يدخله بتهمة السكر أو الزندقة .. يدخله بتهمة القذف ..

والحقيقة أنه كان لا يتورع عن شيء .. لا يمكن سرد معظم القصص

المشينة التي ترتبط به ، ولكن يكفيك أنه مر بمن يقرأ القرآن في

المسجد قائلاً : « قل يأيها الكافرون » ، فوقف ملوحًا بيديه وهتف

ـ « لبيك !! »

بالطبع نهض المصلون وأوسعوه ضربًا وركلاً ثم حملوه إلى

صاحب الشرطة ، ويبدو أن هذا الأخير كان مثل مأموري قصص لاك

لوك .. يقضي وقته في فتح باب الزنزانة لنفس الشاعر عشر مرات

كل يوم .. وكان من يزورونه لهم سحنات مريبة تجلب الشبهات له

فرض عليهم رسم دخول ..

ثمرة الألف تدرك عبير أن الموهبة الفنية والأخلاق ليسوا متلازمين

دائمًا .. هي مقولة أفلاطون التي لا تخطئ عن أن الموهوبين والعباقرة

ليسوا مثالًا أخلاقيًا يحتذى .. بل إنهم أقرب إلى الشر والخسة أحيانًا !

لكن هناك استثناءات بالتأكيد .. استثناءات ثمينة نادرة .. منهم

ذلك الشاعر الذي حصل على نوبل ، صاحب ديوان البستاني .. منهم

البارودي وحافظ إبراهيم و .. و ...

جاء المرشد ليعيدها إلى الوادي .. لقد صارت فرصها في الخروج

محدودة جدًا . أرجو أن تركز في خياراتك قليلًا .

> هل تمكنت من معرفة الشاعر ؟ ابحث عنه وسط قائمة الشعراء
> التي قابلتها في البداية . خذ رقمه . ظلل المربع الذي يحمل هذا
> الرقم في آخر الكتيب .

الشاعـــر العاشـــر

(عبء الرجل الأبيض)

١٤٧

- 1 -

هناك كان الجان يرقصون فى الصحراء . حوافرهم تبعثر الرمال ، أصوات غنائهم تصم الآذان . كانت عبير تسمع أغنية غريبة تقول :

وقبر حرب بمكان قفر ★ وليس قرب قبر حرب قبرُ

كان العرب يعتقدون أن هذه الأشعار ألفها الجان لأنها عسيرة فى اللسان ، لو كررتها مرارًا ..

وترنم آخر قائلا :

ياساكنى البطحاء لاتغلطوا ★ وميزوا الأمر بعقل مضى

إن بنى زهرة من سركم ★ فى غابر الدهر وعندى البدى

كان المرشد يقف جوارها ، فهمس لها وهم يسمعون أشعار الجان .

- « كتب العلامة جلال الدين السيوطى كثيرًا عن هذه الأمور فى كتاب لقط المرجان فى أحكام الجان . »

سمعتهم يقولون وهم يرقصون :

طلبوا الذى نالوا فما حرموا ★ رُفعتْ فما حَطتْ لهم رُتبُ

وهبوا وما تمّتْ لهم خُلقٌ ★ سلموا فما أودى بهم عطبُ

جلبوا الذى ترضى فما كسدوا ★ حُمدتْ لهم شيمٌ فما كسبوا

قالت للمرشد وهي تغمض عينيها :

ـ « ما المشكلة ؟ يبدو شعرًا جيدًا .. شعر مدح كالذي تعج به كتب المدرسة »

قال في خبث :

ـ « اقرئي الأبيات بالعكس كلمة كلمة .. سوف تتحول إلى هجاء قاسٍ !.. هذه براعة جديرة بالجن فعلًا »

زتَب لهم خطتْ فمــا رُفعتْ ★ خرموا فما نالوا الذي طلبوا

غطب بهم أودى فما سلموا ★ خَلَقٌ لهم نَمَتْ ومــا وهبوا

كَسَبوا فما شيَمٌ لهم خمدتْ ★ كمدوا فما ترضى الذي جلبوا

ثم نظر إلى شاعر يقف مصغيًا وهو يمسك بسيجار غليظ ، بينما يقف أمامه جني يمليه الشعر .. وقال لها إن الرحلة قد بدأت .. هكذا فارقت الوادي وراء الشاعر .. تلك الدوامة المخيييييييفة !

★ ★ ★

فوجدت بأنها في بلد مداري حار .. الرطوبة والأمطار والحر الشديد ..

رأت نساء يهرعن ليجمعن الشطة الحمراء التي فرشوها لتجف على

معابد عدة ، وأدركت أن النساء يلبسن الساري .. هذه هي الهند إذن ..

هناك نهر الجانج من بعيد ، يعج بالتماسيح .. هناك غابة استوائية زربة تتعالى منها صيحات القردة .. لقد خمنت اسم الشاعر على الأرجح .. نحن نتكلم عن طاغور إذن ..

هنا فوجئت بفتى نحيل عاري الجذع يخرج من بين الأحراش .. يدور دورة سريعة ثم يتسلق غصن شجرة بسرعة ، وعلى الفور ظهر نمر آسيوي مخيف شرس يحاول اللحاق به ..

صاح الفتى :

- « احترسوا يا إخوتي ! .. إن شيرخان النمر قادم ! »

هنا تعالى عواء الذئاب ..

استطاعت عبير بسهولة أن تخمن أن هذا الفتى قد تربى مع الذئاب Feral .. يبدو الأمر مألوفًا .. ليس هذا (طرزان) فطرزان ربته القردة لا الذئاب .. ثم إن جو (طرزان) أفريقي ..

هنا فوجئت بذلك الرجل الوقور ذي الشارب الكث الذي يضع السيجار بين أسنانه يدنو ليتأمل المشهد .. ثم يهز رأسه .. والتفت نحوها :

- « هل ترغبين في شرب بعض الشاي في مكتبي ؟ »

سألته بارتباك :

- « من أنت ؟ »

- « تلك هي المسألة كما يقول مواطننا العظيم شكسبير .. على كل حال هذا الفتى هو موجلي الصغير .. الذي يعيش مغامرات كثيرة في الأدغال . إننا نتحدث عن العام 1894 عندما ظهرت هذه القصص كنت قد كتبت هذه القصص لابنتي .. الكل يعرف شيرخان وباجيرا الفهد والدب بالو .. الكل يذكر الحية كا التي تجيد التنويم المغناطيسي .. »

هناك جلست في مكتب أنيق له طابع بريطاني واضح .. مكتبة مزدانة بالكتب المجلدة الثمينة ، وعلى الجدار عدة صور .. ثم صورة لديزني !

بدت عليها الحيرة .. ما زال أمام ديزني الكثير من الوقت ليولد هذه ألعاب فانتازيا المعتادة . قال الشاعر وهو يصب لها الشاي في فنجان فاخر :

- « لقد اشترت شركة ديزني الحقوق .. فيما بعد سوف يستلهم هاينلاين قصتي .. موجلي ربته الذئاب فماذا عن شاب ربته الكائنات المريخية ؟ هكذا ولدت (غريب في أرض غريبة) . هاينلاين متأثر بكتاباتي جدًا ، وقد تعلم مني طريقة (الكشف غير المباشر عن الشخصيات) لدرجة أن خبراء الأدب اعتبروها علامته المميزة ! »

هنا اقتحم الغرفة رجل وقور له شارب خفيف وشعر قصير على جانبي الرأس على طريقة الجنود البريطانيين ، لكن عينيه كانتا تنبئتي الحساسية ..

قال في غضب :

- « لا تحاول أن تلعب معها دور مؤلف كتب الأطفال الرقيق .. أنت تعرف أنك صوت الاستعمار والتفرقة العنصرية !.. أنت تمثل كل ما هو بغيض في بريطانيا ! »

متضايقًا لكنه يحتفظ بوقاره البريطاني وشفته العليا المتصلبة ، قال الشاعر :

- « مستر أورويل .. هذا الاقتحام غير مقبول ! »

- 2 -

وقفت عبير منبهرة ترمق العبقرى جورج أورويل، صاحب 1984 ومزرعة الحيوانات ومتشرد فى باريس ولندن والصعود فى الهواء .. هذا هو إذن ..

كلا الرجلين بريطانى جدًا ، لكن أحدهما يمثل الجانب الاستعمارى البريطانى ، والآخر يمثل الضمير ..

دارت مشادة صاخبة بين الرجليـن ، وانتهت بأن أورويل خـرج من الغرفة مغضبًا وصفق الباب خلفـه ، فسقطت لوحة معلقة على الجدار .. لاحظت عبيـر على اللوحـة رأس نوبل المميز .. هذا شاعر آخر نال جائزة نوبل إذن ... فى الواقع لم تكن تعرف أنه أول شاعر بريطانى ينال هذه الجائزة فى التاريخ ، وهو كذلك أصغر شاعر ينالها . بالمناسبة : كان الفرنسى سولى برودوم هو أول من نال نوبل فى الأدب على الإطلاق ..

أسرعت عبير تحمل لوحة نوبل وتعلقها من جديد . ظل الشاعر ينظر للباب بعينين جاحظتين ، شاعرًا بالإهانة ، ثم بدأ ينشد أبيات شعر :

إذا استطعت أن تحتفظ برباطة جأشك عندما يفقد الجميع من حولك رباطة جأشهم ويلومونك بسببها

إذا استطعت أن تثق بنفسك حينما يشكك فيك كل الذين من حولك ،
ومع ذلك تراعي شكوكهم أيضا .

إذا استطعت الانتظار ولم تمل الانتظار ، أو ، إن تكن ممن يفترى
عليه ، لا تتاجر في الأكاذيب ، أو إن تكن ممن يحقد عليه لا تستسلم للحقد ،
مع ذلك لا تبد طيبة فائقة ، أو تتحدث بحكمة أكثر مما يلزم ..

إذا استطعت أن تحلم ـ ولم تصبح عبداً لأحلامك ؛ إذا استطعت أن
تفكر ـ ولم تجعل الأفكار هدفك . إذا استطعت احتمال سماع الحقيقة
ما نطقتها وقد لويت من قبل الأوغاد لينصبوا فخاخاً للمغفلين ..

إذا استطعت أن تصنع كومة واحدة من جميع مكاسبك وتخاطر بها
رمية واحدة في لعبة من ألعاب الحظ ، وتخسر ، وتبدأ مرة أخرى
من حيث بدأت ، ولا تنبس بكلمة بشأن خسارتك :

إذا استطعت أن تتحدث مع جموع الناس وتحتفظ بفضيلتك ، أو
أن تصاحب الملوك ـ ولا تفقد مقدرتك على مصاحبة العامة والتحدث
إليهم ، إذا لم يستطع الأعداء أو الأصدقاء المحبون أن يؤذوك ، إذا
كان لكل الناس أهمية عندك ..

إذا استطعت أن تملأ دقيقة عدم المغفرة بما يساوي ستين ثانية من
جري المسافات .. فالأرض لك و كل ما عليها و ـ ما هو أكثر ـ ستكون
رجلا ، يا بني !

هتفت عبير غير مصدقة وهى تصفق بيديها كطفلة :

ـ « هل أنت صاحب هذه القصيدة الساحرة ؟ قرأتها فى أكثر من كتاب ويبدو أنها مفضلة لدى من يعلّم أو يتعلّم الانجليزية »

قال فى وقار :

ـ « إذا .. إنها دستور الذين يتحدون الغباء .. لى كذلك قصائد شهيرة مثل جانجا دين وماندالى »

ـ « أنت استلهمت الهند كثيرًا »

ـ « قضيت طفولتى فى البنجاب ... لكنى عرفت كذلك أن الشعبين لا بمترجان أبدًا .. لا يمكن للغربى أن يفهم الشرق والعكس »

* * *

ثم إنه أشعل السيجار وقال :

ـ « أنا مبتكر تعبير (عبء الرجل الأبيض) ... أعنى به أن الله خلق الرجل الأبيض وألقى على عاتقه أن يستعمر الشعوب البدائية ويخضع أهلها لقوانينه وحضارته .. ربما لا نريد ذلك العبء لكننا مرغمون على تحمله !

تحمل عبء الرجل الأبيض .. وأرسل أفضل ذريتك

أي أولادك في المنفى

يلبوا مطالب أسراك

يلقوا في عدة الحرب الثقيلة

يحرسون الجموع الهائجة

التي هي أنصاف أطفال وأنصاف شياطين .

شعرت عبير بالغيظ .. فالقصة لا تتعلق بعبء الرجل الأبيض ،

بل تتعلق بقطن مصر وصوف الهند ويورانيوم الكونغو وبترول

العراق .. هذا نفاق صريح .. لو كنت تفعل هذا لأجلنا فلا تفعله من

فضلك ! ثم من قال إننا أنصاف أطفال وأنصاف شياطين ؟ من طلب

رأيك أيها العنصري ؟

تأملت كتبه المتراصة . هنا لاحظت شيئا غريبًا ..

كل الكتب على غلافها صورة الصليب النازي المعقوف

(سفاستيكا) .. ما معنى هذا ؟ هل الرجل نازي ؟ هذا صعب .. لابد أنه

نزل في بداية صعود النازية ..

قال وقد أدرك ما تفكر فيه :

-- هذا ليس صليب سفاستيكا .. لو لاحظت لوجدت أنه ينظر

للجانب الآخر .. هذا هو رمز الشمس في اللغة السنسكريتية .

ومعنـــاه (حظ سعيد) . فيما بعد طلبت حذفه من أغلفة كتبى مع صعود النازية »

لاحظت على مكتبه صورًا كثيرة لشاب وسيم فى ثياب الحرب .. ذلك الطابع الباهت الذى يدل على أن صاحب الصورة مات !... كان التقاط هذه الصور الباهتة يعجل بوفاة موضوع الصورة ..

سالت عبرة من عين الشاعر فمسحها فى عصبية وقال بصوت مبحوح :

ـ « هذا ابنى .. قتل فى الحرب العالمية الأولى !.. قتله الألمان .. »

ـ « أنا آسفة »

ـ « لن تكونى آسفة أكثر منى .. لقد تطوع للجيش مرارًا ورفض أكثر من مرة ، فتدخلت أنا بنفوذى لأجعله يدخل الجيش »

قالت فى لهجة انتصار :

ـ « أحسن .. إذن أنت ذقت آلام فقد الأحباب .. تعرف قسوة الحرب »

رفع عويناته ليعتصر عينيه بإبهاميه من الدموع ، وقال راجفًا :

ـ « كتبت على لسانه ولسان رفاقه : لو سألك أحد لماذا ذقنا المنون .. فلتقل له : لأن الكبار كانوا يكذبون »

- « إذن أنت تعترف أنكم كذبتم من أجل مجد بريطانيا الاستعماري ؟ »

- « بل لأننا لم نكن متأهبين للحرب مثل الألمان ... كنا ضعفاء وكذبنا على الشباب ، وزعمنا أننا أقوياء »

ثم إنه راح يسعل .. يسعل ويصدر ضوضاء شبيهة بالقيء .. أوع .. أوع .. هذا بكاء غريب من نوعه .. الخليط العجيب من السعال والبكاء والقيء والحشرجة والفواق .. هذا رجل خارق يستحق جائزة نوبل فعلا ..

فجأة تقيأ على الأرض والأريكة .. بقعة هائلة من الدم أثارت هلع عبير فتراجعت ..

قال لها وهو يعتصر بطنه:

- « قرحة اثنى عشر .. تنزف .. سوف أموت حالا ... أوع .. أوع ... »

ثم سقط على الأريكة وسط الدم وهتف :

- « أنا أموت .. أرجو حذف اسمي من قائمة المشتركين في جريدتي المفضلة ! .. أوع »

الحقيقة أنه قال هذا فعلاً فى عالم الواقع ... ثم مال رأسه وهمدت حركته .. كأنه كان ينتظر قدومها ليموت ..

نظرت للتقويم فوجدت أن العام هو 1936 ... لو عاش بضعة أعوام لرأى كيف يهدد الخطر النازى بلاده ..

اتجهت للباب فى تؤدة وهى ما زالت تسمع صوته يردد أشعاره :

« عندما ترقد جريحاً فوق هضاب أفغانستان وتأتى النسوة ليمزقن ما بقى منك .. أخرج بندقيتك وانسف مخك .. ثم اذهب لتلقى ربك كجندى »

هل تمكنت من معرفة الشاعر ؟ ابحث عنه وسط قائمة الشعراء التى قابلتها فى البداية .. خذ رقمه .. ظلّل المربع الذى يحمل هذا الرقم فى آخر الكتيب .

الشاعر الحادى عشر

(قاهرو التفعيلات)

- 1 -

هي تمشي وحدها في الصحراء نحو جبال في الأفق. جبال رمادية كئيبة المنظر تستحم في ضوء القمر. قدماها تنغرسان في الرمل .. هي مرهقة فعلاً وتشعر ببرد شديد ..

جائعة كذلك .. إن آخر فنجان شاي شربته مع الشاعر البريطاني قد انتهى مفعوله ..

جلست على الرمال ترتجف. هي بحاجة إلى نار .. بحاجة لحساء ساخن، ولربما كان العدس أفضل شيء .. وادي عبقر حار قائظ نهارًا قارس البرد ليلاً ..

هنا رأت كتلة من لهب تتقدم نحوها .. كتلة لها قدمان وذراعان. رأت مشهدًا مشابهًا في قصة قديمة من مجلات مارفل .. لعله الرجل الناري أو شيء من هذا القبيل ..

وقفت كتلة اللهب أمام امرأة.

هذه امرأة !.. امرأة في وادي عبقر !.. هذا يتحدى الحمقى الذين يقولون إنه لا توجد امرأة عبقرية

إن كتلة النار هي جن، وإنه ليمليها أبيات شعر

تضحك المرأة وتهز رأسها محيية ، ثم ترفع رأسها .. تدور الدوامة وترفع فيها ببطء نحو عالم آخر .. وسرعان ما وجدت عبير أنها تلحق بها

* * *

نحن في بغداد .. العراق ..

لا سقيا العراق وأهله ومنقلبه .. فهو قد لعب الدور الأبرز في تقدم الشعر العربي ..

كانت عبير تمشي في زمن معاصر .. تزتاد نفس الأماكن التي زارتها مع شعراء عديدين .. لكن كل شيء قد تغير .. هذه مدينة حديثة معاصرة ..

المشكلة هي أن سيارات الإسعاف وأطقم الأطباء كانوا في كل مكان .. وكانوا يحملون على المحفات أشخاصًا صاروا كليمونة معصورة .. وقد جفوا تمامًا من فرط الإسهال .. امتلأت المستشفيات وراحوا يرقدون المرضى في الطرقات .. ويربطون أجهزة المحاليل إلى أعمدة النور

رأتها عبير تمشي هناك وقد بدا عليها الذعر .. لكنها كذلك مفتونة بمشهد الموت .. كأنها تشاهد فيلم رعب لا علاقة لها به ..

كانت سمراء نحيلة أقرب إلى الاكتئاب .. ذات عينين واسعتين مندهشتين من قسوة الكون ..

هتفت عبير فى ذعر :

- « هل هذا وباء الطاعون ؟ »

قالت الشاعرة فى هدوء :

- « بل هى الكوليرا .. أنت ترين هذه المشاهد الملحمية القطيعة معى .. لو لم أكتب شعرًا فماذا أكتب ؟ »

ثم أنشدت :

سكنَ الليلُ

أصغِ إلى وقعِ صدى الأنّاتْ

فى عُمقِ الظلمةِ ، تحتَ الصمتِ ، على الأمواتْ

صرخاتٌ تعلو ، تضطربُ حزنٌ يتدفقُ ، يلتهبُ

يتعثّرُ فيه صدى الآهاتْ فى كل فؤادٍ غليانْ

فى الكوخِ الساكنِ أحزانْ

فى كل مكانٍ روحٌ تصرخُ فى الظلماتْ

فى كلِّ مكانٍ يبكى صوتْ

هذا ما قد مزّقهُ الموتْ

فى صمتِ الفجرِ ، أصخْ ، انظرْ ركبَ الباكينْ

لا تخصِ أصخْ للباكينا

اسمعْ صوتَ الطفلِ المسكينْ

موتى، موتى، ضاع العدد

ولحظة إخلاد لا صمت

هذا ما فعلت كف الموت

الموت .. الموت »

راق الشعر لعبير، وشعرت بأن فيه طابعًا مقبضًا ساحرًا، لكنها شعرت بأن الإيقاع غير معتاد .. ثمة شيء غريب هنا. صارحت الشاعرة بأنها تشعر بشيء غريب، فقالت هذه في انبهار:

- « هذا شعر حر .. تحررت من طول التفعيلة ومن قيود القافية .. رأيت أن القافية ترغم الشاعر على افتعال المعاني وقول ما لا يريد قوله .. في الوقت نفسه غيرت الكثير من الإيقاعات. لقد قرأت الكثير من شعر الأمريكي العبقري إدجار آلان بو، لذا تعلمت منه هذا الإيقاع »

تذكرت عبير في أن إدجار آلان بو كان ينبوعًا روى شعراء كثيرين هنا، وألهم قصصين كثيرين جدًا .. لا يمكن تخيل الشعر ولا أدب الرعب من دون بو. لهذا عاش الشيخ رفعت إسماعيل مغامرة كاملة معه

عادت الشاعرة تنشد:

أهذا إذن هو ما نقول الحياة ؟

خطوط نظلُ نخططها فوق وجه المياه ؟

وأصداء أغنية فظة لا تمسّ الشفاه ؟

وهذا إذن هو سرّ الوجود ؟

ليالٍ ممزقة لا تعود ؟

وآثار أقدامنا فى طريق الزمان الأصم ملايين ثم زالوا و بادوا

ليت شعرى ماذا جنَوْا من لياليهمْ ؟

وأين الأفراحُ و الأعيادُ ؟

وأضافت فى فخر:

ـ « لدىّ كتب نقدية كثيرة : منها كتابى الأهم عن قضايا الشعر المعاصر وسيكولوجية الشعر. »

هنا سمعت عبير من يصيح :

ـ « بالفعل هنا هو شعر إدجار آلان بو .. الوزن والجو والخيالات ومن الواضح أنك لم تتحررى من القافية كما زعمت ! »

- 2 -

المتكلم كان رجلاً نحيلاً ضئيل الجسم تحس أنه يبحر فى ثيابه ، لكن من الواضح من عينيه أنه مقاتل شرس . وقد قالت له الشاعرة فى لؤم :

«برغم كل شىء هذا أفضل من شعرك !»

بدا عليه الضيق .. الحقيقة أنه كان من البصرة .. كان يفخر بأنه من البلدة التى أنجبت الأخفش وسيبويه والفرزدق والخليل ابن أحمد الفراهيدى وبشار بن برد .. لابد أن ساكنى البلدة يشربون الشعر مع الماء ..

هو كذلك كان قد ترجم الكثير من الشعر العالمى .. ترجم للوركا وطاغور وناظم حكمت .. وكان يحن لقريته جوار البصرة ..

قال فى فخر لعبير :

«بلا فخر .. أنا من ابتكر الشعر الحديث .. شعرت بحاجة الشعر العمودى إلى التحرر من القوافى وقيود التفعيلة .. لو لم نطور الشعر لمات .. سينصرف عنه القارئ عما قريب»

قالت الشاعرة فى عناد :

- « أنا من ابتكرت الشعر الحديث .. هذا الرجل يبالغ »

هنا ظهر من مكان ما رجل أشيب الشعر قصير القامة . وقد بدا متضايقًا بدوره ، تساءلت عبير عن سبب تجمع كل هؤلاء العصبيين في مكان واحد . قال الرجل :

- « أنا مبتكر الشعر الحديث .. يمكنكما الانصراف ... »

قال له الشاعر الثاني :

- « تعرف أنك ماركسي وأنك قضيت معظم حياتك في الاتحاد السوفيتي . أرجو أن تترك لنا شعرنا ولغتنا واكتب أنت بالروسية أو الإسبانية »

قالت الشاعرة لعبير :

- « هذا الماركسي هو عبد الوهاب البياتي .. له جمهور كبير في إسبانيا ، وهو صديق السوفيتي إيفتوشنكو والتركي ناظم حكمت ، لكنه في رأيي ليس ذا دور في ابتكار الشعر الحديث .. »

تحمس الشاعر الأخير فأنشد مقطعًا من شعره :

في زمن المنشورات السرية

في مدن الثورات المغدورة

جيفارا العاشق في صفحات الكتب المشبوهة

يئوى مغموراً بالثلج و بالأزهار الورقية

قالت و ارتشفت فنجان القهوة فى نهم

سقط الفنجان لقاع البئر المهجور

رأيت نوارس بحر الروم تعود

لترحل نحو مدار السرطان

و نحو الأنهار الأبعد

فى أعمدة الصحف الصفراء

يبيع الجزارون لحوم الشعراء المنفيين

العرافة قالت هذا زمن سقطت فيه الكتب المشبوهة والفلسفة

الجوفاء

ما شاء الله .. خطر لعبير أن هذا الشعر متحرر من القافية والوزن والتفعيلات .. هذه هى القصائد النثرية كما سمعت . يبدو كأنه شعر مترجم . على كل حال لو كان النقاش حول التحرر من القصائد العمودية فهذا الرجل هو الأفضل ..

قال الشاعر الثانى النحيل :

«.. أنا لا أتحمل هذه المنازعات .. الأمر واضح وهو أننى من ابتكر الشعر الحديث و .. أى ! »

ثم سقط على الأرض وراح يتحسس ظهره في ألم .. حاول النهوض أكثر من مرة لكنه كان يسقط من جديد ، وأدركت عبير أنه يعاني مرضًا عضالًا في فقرات الظهر ..

- « هل أصيب بالكوليرا ؟ »

- « الكوليرا لا تسبب ألمًا في الظهر »

ثم أردفت الشاعرة :

- « سوف يذهب للعلاج ويجرب عدة بلدان ، ثم ينتهي به المطاف في الكويت ويموت في المستشفى عام 1964 »

- « ومتى يموت البياتي ؟ »

- « سيموت في التسعينيات .. أنا الوحيدة التي سيمتد بها العمر إلى 2007 ولسوف أموت في القاهرة »

ثم دقت على صدرها في فخر وقالت :

- « لقد كان الشعر حياتي .. في سن العاشرة كنت أحفظ بالكامل مناظرة الكسائي وسيبويه . وهي مناظرة لم أعد أطيق قراءتها اليوم .. »

قالت عبير محاولة التذكر :

- « إذن لدينا البياتي .. ولدينا الشاعر المصاب في ظهره .. ولدينا أنت .. »

أنشدت الشاعرة :

يا ظلام الليل يا طاوى أحزان القلوب
أنظر الآن فهذا شبح بادى الشحوب
جاء يسعى ، تحت أستارك ، كالطيف الغريب
حاملاً فى كفه العود يغنى للغيوب
ليس يعنيه سكون الليل فى الوادى الكئيب
هو ، يا ليل ، فتاة شهد الوادى سراها
أقبل الليل عليها فأفاقت مقلتاها
ومضت تستقبل الوادى بألحان أساها
ليت آفاقك تدرى ما تغنى شفتاها
آه يا ليل ويا ليتك تدرى ما مناها

قالتها وابتعدت وسط الشارع الذى تناثرت فيه الجثث .

هنا شعرت عبير بيد توضع على كتفها . كان هذا هو المرشد شخصياً وكان يبتسم .. قال لها وهو يستند إلى جدار :

-« قصة اليوم قد انتهت .. ترى هل وصلت إلى حل اللغز أم تعود لوادى عبقر لتقضى بقية حياتك فيه ؟ »

قالت عبير :

-« أعتقد أننى خمنت كل الشعراء .. يمكننى أن أغادر المتاهة الآن .. »

قال لها :

ـ « على كل حال هناك الكثير من الشعراء .. لو أحب القراء هذه التجربة فسوف تكررها فى كتيب آخر .. ليس كل الناس مولعين بالشعر .. لكن كل الناس يحبون اللعب .. والآن قولى لى اسم الشاعر »

ـ « تقصد اسم الشاعرة ؟ »

ـ « بل الشاعر العراقى العبقرى الذى نافسها فى براعة اختراع الشعر الحر .. الشاعر الذى أصيب بمرض عضال فى ظهره .. »

فكرت قليلاً وبدا لها الأمر صعبًا. لربما استطعت أن تساعدها أنت .

الآن قم بشطب المربعات التى تطابق أرقام الشعراء التى خمنتها .

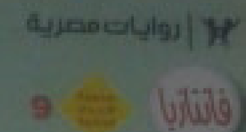
4	3	2	38
8	7	60	5
12	11	51	9
29	15	14	13
20	33	44	50
24	61	22	21
42	58	26	49

في النهاية ستري شكل حرف لاتيني . قم بوضعه مكان علامة لاستفهام في العنوان البريدي التالي :

?urprise@hotmail.com

أرسل خطابا على هذا العنوان ، ولا تتمنّ أن يكون فيه لمستك ومنيتك . أتمنى لك حظًا سعيدًا

تمت بحمد الله





د. أحمد خالد توفيق

جاءوا من الوادي

جاءوا من وادي عبقر ، وكلهم يحفظون شعرًا أملاه عليهم الجن ، وأنشدوه في عالمنا فحسب الناس أنه من تأليفهم .

تفرقوا في أرجاء الأرض وتباينت ألسنتهم ، لكنهم من آن لآخر يعودون للوادي كي يتزودوا بالقريض .

إنهم الشعراء المشاهير .

واليوم نرى عبير وقد ضلت طريقها في هذا الوادي ، تحاول الخروج بأي طريقة لكنها مرغمة على لعب اللعبة بقواعدها ، وبالطبع نحن سجناء معها ، وعلينا أن نحاول مساعدتها.

19350

